آيات بسط الرزق وقدره فى القرآن الكريم
دراسة بلاغية

الدكتور / على عبدالرحمن حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى حمد نفسه فى أول سورة من كتابه فقال " الحمد لله رب العالمين "[١] الذى خلق الإنسان وعلمه البيان وأمره بعبادته وتكفل برزقه إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، يقول تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين "[٢] ويقول تعالى : " الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم "[٣].

والصلاة والسلام على خيرته من خلقه وصفوته من عباده ، إمام البلغاء وسيد الفصحاء ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين، وبعد ،،،

فمنذ نزول القرآن شغل الناس به لمحاولة إدراك أسرار إعجازه ، وتعددت الدراسات حوله " فترى كل ذى فن منه يستمد وعليه يعتمد ، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام ، والنحوى يبنى منه قواعد إعرابه ، ويرجع إليه فى معرفة خطأ القول من صوابه ، والبيانى يهتدى به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة فى صوغ الكلام " [٤].

---

(١) الفاتحة : ١ .
(٢) الذاريات : ٥٨ .
(٣) الروم : ٤٠ .
(٤) الإتقان للسيوطى ٤/١ .

وقد حاولت الوقوف على أسرار التعبير القرآنى فى آيات بسط الرزق وقدره ، دون بقية آيات الرزق ؛ نظرا لكثرة آيات الرزق فى القرآن الكريم والتى لا تحتاج إلى بحث واحد ؛ وإنما أخص بالدراسة الآيات التى ورد فيه البسط والقدر .

بالإضافة إلى أن قضية الرزق من القضايا التى تشغل الناس وتحار عقولهم فيها ؛ لأن الإنسان حينما يشب يجد نفسه إلى ما يقوم به حياته ومتطلباته ، فيكد ويتعب من أجل الحصول على ما يريد ، وقد يكفى الآباء أبناءهم ما يريدون من أموال إذا كانوا فى سعة ، ولكن ليس كل الآباء ممن أنعم الله عليهم بسعة فى الرزق ، فيشغلون بالحصول على ما به بقاء حياتهم واستمرار الراحة والسعادة لهم ، فيقدم كل واحد منهم على عمل يناسب أهواءه وميوله ، وقد يقبل الإنسان عملا لا يتواءم مع ميوله وأهوائه ، ولكن المهم عنده هو الحصول على ما يريد من مال .

والرزق مقسوم ، والانسان عليه أن يسعى ، وقد يدرك ما يريد وقد لا يدرك .

وهناك مقياس خاطئ يدور بأذهان الكثير من الناس ، وهو أن سعة الرزق تدل على رضا الله تعالى عن الموسع له ، وأن قدره يدل على غضب الله على المقدور عليه ، فأردت بيان أن السعة والقلة لا تخضع لهذا المقياس فقد تكون السعة استدراجاً وقد يكون القدر نعمة .

والناس مختلفون فى السعى على الرزق فمنهم من يتحرى الحلال والحرام ، واضعاً نصب عينيه الثواب والعقاب ، ولو كان من أحوج الناس إلى المال ، ومنهم من لا يتحرى ذلك فى كسبه وسعيه ولا يضيره الحلال أو الحرام ، وصور الكسب من الحرام كثيرة ومتنوعة .

إن الكثير من الناس ينظر إلى أن المقصود بالرزق هو المال ، ولكن الرزق لا ينحصر فى المال فقط كما سيأتى .

من أجل كل هذا قصدت إلى كتابة هذا البحث .

وقد اتبعت فى هذا البحث المنهج التحليلى ، ورايت ألا أقسمه إلى أبواب أو فصول بل ذكرت الآيات مرتبة على حسب ترتيبها فى المصحف ، وقمت بالوقوف عند كل آية على حده ، مبيناً فى كل آية صلتها بما قبلها ، وأنها قد جاءت لغرض معين ، وبينت الأسرار البلاغية فى كل آية كما سيتضح ، وإن الناظر فيها ليلحظ اتفاق الآيات فى اللفظ ولكن هناك اختلافاً فى السياق والمقام ، وقد جاء البسط والقدر معاً فى عشرة مواضع ، وجاء القدر فى موضعين فقط ، وقد استعنت فى بيان أسرار التعبير فى كل آية بالعديد من المصادر والمراجع اللغوية والبلاغية وغيرها - التى يجدها القارئ مبثوثة فى تضاعيف هذا البحث وثناياه .

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد تلوتهما بالآيات – موضوع الدراسة – وشفعتها بالخاتمة وثبت المصادر والمراجع وفهرس لموضوعات البحث :-

ففى المقدمة : بينت أهمية البحث وقيمته ، وسبب اختياره ، والمنهج الذى أسلكه فيه .

وأما التمهيد : فقد ذكرت تعريف الرزق لغة واصطلاحاً ، وبينت أقسامه ، والفرق بينه وبين الكسب ، والخلاف فيه من جهة الحلال والحرام .

ثم الآيات الدالة على بسط الرزق وقدره مرتبة على حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

ثم كانت الخاتمة : وفيها ذكرت أهم النتائج ، ثم تلوتها بقائمة للمصادر والمراجع التى استقيت منها مادة البحث ، وختمت بفهرس لهذا البحث .

والله اسأل أن يسدد على الحق خطانا إنه ولينا فنعم المولى ونعم النصير ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

تمهيد

مفهوم الرزق وأنواعه وأقسامه والخلاف حوله

قبل أن نقف على آيات بسط الرزق وقدره يجدر بنا تعريف القارئ بالرزق ، وأقسامه ، والفرق بينه وبين الكسب ، والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة حوله .

أولا : تعريف الرزق لغة :

الرزق مصدر رزق يرزق رَزْقاً ورزْقاً ، فالرزقْ بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ، والرزق : العطاء ، والرزق : ما ينتفع به ، والأرزاق نوعان : ظاهرة للأبدان كالأقوات ، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم [١].

وقيل : الرزق الحظ ؛ قال تعالى : " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون "[٢] أى حظكم من هذا الأمر ، والحظ هو : نصيب الرجل وما هو خاص له دون غيره [٣] " وقال ابن السكيت : الرزق بلغة أزد شنوءة : الشكر وهو قوله عز وجل : "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " " أى شكركم التكذيب"[٤].

وقال الراغب : " الرزق يقال للعطاء الجارى تارة دنيوياً كان أم أخروياً ، وللنصيب ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به ؛ يقال : أعطى السلطان رزق الجند ، ورزقت علماً ، قال تعالى : " وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت "[٥].

---

(١) لسان العرب (رزق) وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/١ .
(٢) الواقعة : ٨٢ .
(٣) مفاتيح الغيب للرازى ٣٩٤/١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/١ .
(٥) المنافقون : ١٠ .

أى : وتجعلون نصيبكم من النعمة تحرى الكذب ..... ، ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل ، وكل ذلك مما يخرج من الأرضين ، وقد قيضه الله بما ينزله من السماء من الماء . وقال فى العطاء الأخروى : " ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون "[1] أى : يفيض الله عليهم النعم الأخروية " [2].

ثانيا : الرزق اصطلاحاً :

هو : ما يقتنيه الإنسان وتعود منفعته على العبد وتحصل له ثمرته من إنفاقه فى مصالحه وحاجاته[3].

وقيل : هو تمكين الحيوان من الانتفاع بالشئ والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع به ، فإذا قلنا قد رزقنا الله تعالى الأموال ؛ فمعنى ذلك أنه مكننا من الانتفاع بها[4].

وقيل أيضاً : الرزق بمعنى الشئ المرزوق - عند أهل السنة - ما ساقه الله إلى الحيوان فانتفع به بالفعل .... ودخل فى الرزق على هذا التعريف رزق الإنسان والدواب وغيرهما ، وشمل المأكول وغيره مما انتفع به ، وخرج ما لم ينتفع به بالفعل ، فمن ملك شيئاً وتمكن من الانتفاع به ولم ينتفع به بالفعل فليس ذلك الشئ رزقاً ، وإنما يكون رزقاً لمن ينتفع به بالفعل .

وقال جماعة من المعتزلة : ليس الرزق ما انتفع به ، بل هو ما ملك ؛ فلا يعتبر فيه ، الانتفاع ويعتبر فيه المملوكية انتفع به أم لا ، ويلزم على هذا أن الشخص قد لا يستوفى رزقه، وأنه يأكل رزق غيره، ويأكل غيره رزقه .... ولم يتبع هذا القول أئمتنا لفساده طرداً - وهو التلازم فى الثبوت ، وعكساً - وهو التلازم فى النفى [5].

---

(١) آل عمران : ١٦٩ .
(٢) المفردات للراغب (رزق) .
(٣) مقدمة ابن خلدون /٣٠١ .
(٤) مفاتيح الغيب ٣٩٤/١ .
(٥) البيجورى على الجوهرة /٢٤٢ .

من هذا يتضح أن الراجح هو رأى أهل السنة وهو أن الرزق يطلق على ما ينتفع به بالفعل وأن المملوك الذى لم ينتفع به يكون كسبا لا رزقاً كما سيأتى .

ثالثا : أقسام الرزق :

الرزق كما قيل : أربعة أقسام :

١- الرزق المضمون : وهو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الأسباب ، فالضمان من الله لهذا النوع [١].

٢- الرزق المقسوم : وهو ما قسمه الله سبحانه وكتبه فى اللوح المحفوظ ، مما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت ، لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر [٢].

٣- الرزق المملوك : وهو ما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه [٣].

٤- الرزق الموعود : وهو ما وعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالاً من غير كد قال تعالى : " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " [٤].

والنوع الأول - وهو المضمون - يندرج تحت المقسوم ، وأما الثالث - وهو المملوك - إن انتفع به الإنسان فهو رزق وإن لم ينتفع به ، فهو كسب والله أعلم .

---

(١) سراج الطالبين ٨٨/٢ .
(٢) السابق ٩٢/٢ .
(٣) سراج الطالبين ٩٥/٢ .
(٤) السابق ٩٥/٢ .

رابعا : الفرق بين الرزق والكسب :

بعد أن وقفنا على تعريف الرزق ، نسوق تعريف الكسب ، وبعد التعريف يتضح للقارئ الفرق بينهما .

الكسب : طلب الرزق ، واكتسب : طلب الرزق ، وكسب : أصاب ، واكتسب : تصرف واجتهد ، هذا فى اللغة ، أما فى الاصطلاح فقد قيل : هو ما لم ينتفع به الإنسان فى شئ من مصالحه وحاجاته ، مثل التراث ، فإنه بالنسبة إلى الهالك (المتوفى) كسب ولا يسمى رزقاً ؛ إذ لم يحصل به منتفع .

والميراث إذا انتفع به الوارثون فيسمى رزقاً [١].

وقيل الاكتساب : مباشرة الأسباب بالاختيار كالبيع والشراء لأجل الربح ، ومثله تعاطى الدواء لأجل الصحة ونحو ذلك [٢].

خامسا : الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة حول الرزق :

اختلف أهل السنة والمعتزلة فيما يتصل بالحلال والحرام من الرزق، وقد جاء هذا الخلاف واضحاً جلياً عند السيد الشريف الجرجانى فى حاشيته على الكشاف للزمخشرى ، والرازى والألوسى عند تفسير قوله تعالى : " ومما رزقناهم ينفقون " فى سورة البقرة آية ٣ .

يقول الزمخشرى فى هذه الآية : " وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه " [٣].

ثم يقول السيد الشريف : " قوله وإسناد الرزق " لا خلاف بين الجماعة والمعتزلة فى أن المراد بما رزقناهم هو الحلال إلا أن الجماعة لما سموا الحرام رزقاً ، وأسندوا الأشياء كلها إلى الله تعالى تمسكوا فى

---

(١) مقدمة ابن خلدون /٣٠١ .
(٢) البيجورى على الجوهرة /٢٤٤ .
(٣) الكشاف ١٣٢/١ .

ذلك ، بأن المدح إنما يكون للإنفاق من الحلال ، وبأن الاتصاف بالتقوى يقتضيه أيضاً ، وبأن الإسناد إلى الله تعالى عند الإطلاق منصرف إلى ما هو أفضل وأكمل .

وأما المعتزلة فلا يسمون الحرام رزقاً ؛ لأنه ليس برزق لغة ، ولا يجوزون إسناده إلى الله تعالى ، لتعاليه عن القبائح ، فلفظ الرزق وإسناده إلى الله تعالى دليلان لهم على أن المنفق ههنا هو الحلال المطلق : أى الخالص الطيب والمصنف تمسك بالإسناد فقط ، نظراً إلى أن الرزق لغة يتناول الحرام أيضاً " [1].

ويقول الرازى : " فقد اختلفوا فيه فقال أبو الحسين البصرى :

الرزق هو تمكين الحيوان من الانتفاع بالشئ ، والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع به ، فإذا قلنا : قد رزقنا الله تعالى الأموال ، فمعنى ذلك أنه مكننا من الانتفاع بها ..... واعلم أن المعتزلة لما فسروا الرزق بذلك لا جرم قالوا : الحرام لا يكون رزقاً . وقال أصحابنا : الحرام قد يكون رزقاً ؛ فحجة الأصحاب من وجهين ، الأول : أن الرزق فى أصل اللغة هو الحظ والنصيب على ما بيناه ، فمن انتفع بالحرام فذلك الحرام قد صار حظاً ونصيباً ؛ فوجب أن يكون رزقاً ، الثانى : أنه تعالى قال : " وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها " [2]. وقد يعيش الرجل طول عمره لا يأكل إلا من السرقة ، فوجب أن يقال : إنه طول عمره لم يأكل من رزقه شيئاً .

أما المعتزلة فقد احتجوا بالكتاب والسنة والمعنى :

أما الكتاب فوجوه. أحدها قوله تعالى : "ومما رزقناهم ينفقون"[3] مدحهم على الإنفاق مما رزقهم الله تعالى ؛ فلو كان الحرام رزقاً لوجب أن يستحقوا المدح إذا أنفقوا من الحرام ، وذلك باطل بالاتفاق ، وثانيها :

---

(١) حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف ١٣٢/١ .
(٢) هود : ٦ .
(٣) البقرة ٣ .

لو كان الحرام رزقاً لجاز أن ينفق الغاصب منه لقوله تعالى : "وأنفقوا مما رزقناكم"[1]، وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز للغاصب أن ينفق ما أخذه ، بل يجب عليه رده ، فدل على أن الحرام لا يكون رزقاً ، وثالثها : قوله تعالى : " قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم [2]" فبين أن من حرم رزق الله فهو مفتر على الله ، فثبت أن الحرام لا يكون رزقاً " [3].

ثم ذكر حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ وهو حديث عمرو بن قرة والذى استدل به المعتزلة على أن الحرام لا يكون رزقاً .

وقد رجح الرازى رأى أهل السنة فى هذا ، ومثله فى ترجيح رأى أهل السنة الألوسى ، فبعد أن ذكر تعريف الرزق لغة وذكر تعريف الأشاعرة والمعتزلة قال : " واختلف المتكلمون فى معناه شرعاً ، فالمعول عليه عند الأشاعرة : ما ساقه الله تعالى إلى الحيوان فانتفع به سواء كان حلالاً أو حراماً من المطعومات أو المشروبات أو الملبوسات وغير ذلك ، والمشهور أنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان ليتغذى به .

والمعتزلة فسروه فى المشهور تارة بما أعطاه الله تعالى عبده ومكنه من التصرف فيه ، وتارة بما أعطاه الله تعالى لقوامه وبقائه خاصة، وحيث إن الإضافة إلى الله سبحانه ، وأن العبد يستحق الذم والعقاب على أكل الحرام ، وما يستند إلى الله عز وجل عندهم لا يكون قبحاً ولا مرتكبه مستحقاً ذماً وعقاباً قالوا : إن الرزق هو الحلال ، والحرام ليس برزق ، وعندنا أن الكل منه وبه وإليه " قل كل من عند الله"[4] ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والى الله تصير الأمور ، والذم

---

(١) المنافقون : ١٠ .
(٢) يونس : ٥٩ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٩٤/١ ـ ٣٩٥ .
(٤) النساء : ٧٨ .

والعقاب لسوء مباشرة الأسباب بالاختيار ، نعم الأدب من خير رأس المال المؤمن فلا ينبغى أن ينسب إليه إلا الأفضل فالأفضل كما قال إبراهيم – عليه السلام : " وإذا مرضت فهو يشفين "[1] فالحرام رزق فى نفس الأمر لكنا نتأدب فى نسبته إليه سبحانه "[2] .

والذى تميل إليه النفس أن الرزق يكون من الحلال والحرام معا كما قال أهل السنة ؛ لأن الحرام قد دخل فى دائرة الانتفاع والكسب ، ولو أن الإنسان قد صبر على الحرام لاكتسبه بالحلال ، ولكن الإنسان لشغفه بحب المال يتعجل .

وأما بالنسبة لرأى المعتزلة فيمكن أن يقال لهم : على أى وجه يحمل الكسب من الحرام ؟ فالمال الذى اكتسبه الإنسان وانتفعْ به فى المأكل والمشرب والملبس من الحرام يحمل على أنه رزقه ، لأن النفوس البشرية ليست على درجة واحدة من الطاعة والتقوى فهذا يتحرى الحلال والحرام فى مطعمه ومشربه وملبسه وعمله ، وذاك يخلط بينهما والآخر لا يطعم إلا من الحرام ؛ لأن كسبه من الحرام ، وقد أنعم الله على الإنسان بالعقل الذى يميز به الحرام من الحلال ، ولكن النفوس تجاه ذلك مختلفة .

---

(١) الشعراء : ٨٠ .

(٢) روح المعانى ١٩٢/١ – ١٩٣ .

آيات بسط الرزق وقدره فى القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى : " الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع " (١).

ويقول الله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً " (٢).

ويقول تعالى : " وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون " (٣).

ويقول تعالى : " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم " (٤).

ويقول تعالى : " أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " (٥).

ويقول تعالى : " وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين . قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٦).

ويقول تعالى : " قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين " (٧).

---

(١) الرعد : ٢٦ .
(٢) الإسراء : ٢٩ – ٣٠ .
(٣) القصص : ٨٢ .
(٤) العنكبوت : ٦٢ .
(٥) الروم : ٣٧ .
(٦) سبأ : ٣٥ – ٣٦ .
(٧) سبأ : ٣٩ .

ويقول تعالى : " أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " [١].

ويقول تعالى : " له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شئ عليم " [٢].

ويقول تعالى : " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير " [٣].

ويقول تعالى " لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا " [٤].

ويقول تعالى : " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن"[٥].

---

(١) الزمر : ٥٢ .
(٢) الشورى : ١٢ .
(٣) الشورى : ٢٧ .
(٤) الطلاق : ٧ .
(٥) الفجر : ١٥ ـ ١٦ .

آية الرعـــد

يقول الله تبارك وتعالى :

" الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع " (١).

هذه الآية قد سبقت بسياق يدل على عدم التسوية بين المؤمن المصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وبين الكافر الذى عبر عنه القرآن الكريم بالأعمى ، على جهة الاستعارة الأصلية ، يقول الله تعالى : " أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب "(٢).

وفى قوله تعالى : " إنما يتذكر أولوا الألباب " " تعريض بالمشركين بأنهم لا عقول لهم إذ انتفت عنهم فائدة العقول " (٣). وهو تعريض بـ " إنما " وانتفاء هذه الصفة عن المشركين يدل على ثبوتها للمؤمنين الذين وصفهم الله تعالى أيضاً بصفات أخرى فى قوله تعالى : " الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار " (٤). ثم تذكر الآيات صفات المشركين المقابلة لصفات المؤمنين يقول تعالى : " والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنى ولهم سوء الدار " (٥).

---

(١) الرعد : ٢٦ .
(٢) الرعد : ١٩ .
(٣) التحرير والتنوير ١٢٣/١٣ .
(٤) الرعد : ٢٠ – ٢٢ .
(٥) الرعد ٢٤ .

وبعد بيان هذا السياق يمكن أن يقال ما صلة الآية التى نحن بصددها بهذا السياق ؟

وفى الجواب عن ذلك يمكن القول : بأن هذه الآية جاءت جواباً عن سؤال مقدر يقول : لماذا وسع الله الرزق على الكفار مع نقضهم لعهد الله وإفسادهم فى الأرض وضيقه على المؤمنين ؟ والجواب عن ذلك أن الله تعالى حين يبسط الرزق للكافر لا يدل هذا على أن له كرامة ومنزلة عند الله تعالى ، وأنه تعالى حين يضيق الرزق على المؤمن لا يدل هذا على غضبه وعدم رضاه للحكمة الإلهية فى خلق الله ، ولله فى خلقه شئون وهذا هو المفهوم من أقوال الرازى والبقاعى والشهاب الخفاجى وغيرهم، يقول الرازى : " اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل : لو كانوا أعداء الله لما فتح عليهم أبواب النعيم واللذات فى الدنيا ، فأجاب الله بهذه الآية ، وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيق على البعض ولا تعلق له بالكفر والإيمان "[1].

ويقول البقاعى : " ... ختم بأن للكافر البعد والطرد عن كل خير والسوء كان موضع أن يقول الكافر : مالنا يوسع علينا مع بعدنا ، ويضيق على المسلم مع وصله واتصاله ؟ وماله لا يبسط له رزقه ليتمكن من إنفاق ما أمر به إن كان ذلك حقا ؟ فقيل : " الله يبسط الرزق لمن يشاء"[2].

فالفصل بين قوله تعالى : " الله يبسط الرزق ... " وبين ما قبلها فى قوله تعالى " الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه " تنحصر فى شبه كمال الاتصال ؛ لأن الآية التى نحن بصددها جاءت جواباً عن سؤال مقدر فى الجملة السابقة .

---

(١) مفاتيح الغيب ٩ / ٢٤١ .

(٢) نظم الدرر للبقاعى ١٠ / ٣٣٣ ، وانظر حاشية الشهاب ٤١٢/٥ ، والتحرير والتنوير ١٣/ ١٣٣ / ١٣٤ .

والمقام هنا هو الرد على ما يمكن أن يدور بأذهان المؤمنين والكافرين ، وبيان أن بسط الرزق وقدره إنما هو خاضع للحكمة الإلهية وهى إيجاد التفاوت بين الناس فى الرزق ، يقول تعالى : " والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق "[1]. واختبار الموسع له لينظر ماذا يفعل ؟ هل يؤدى شكر النعمة أم يكفر بنعم الله عليه ويجحد ؟ وكذا القدر يعد ابتلاء لينظر ماذا يفعل المقدور عليه ؟ هل يصبر أم يجزع ؟

وقد جاء فى الآية المسند إليه مقدماً على خبره الفعلى فى قوله تعالى : " الله يبسط الرزق " وقد اختلف فى هذا التقديم هل هو مفيد للقصر أو لتقوية الكلام ؟ فالمفهوم من كلام الزمخشرى أن التقديم هنا للقصر ؛ حيث قال : " أى أن الله وحده يبسط الرزق ويقدره دون غيره ، وهو الذى بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم "[2].

والعلامة الألوسى قد ذكر أن السكاكى يرى أن التقديم للتقوى وأن الزمخشرى يرى أنه يدل على التقوى والتخصيص فيقول : " وتقديم المسند إليه فى مثل هذه الآية للتقوى فقط عند السكاكى ، والزمخشرى يرى أنه لا مانع من أن يكون للتقوى والتخصيص ولذا قال : " أى الله وحده يبسط الرزق ويقدر دون غيره سبحانه "[3] ؛ لأن السكاكى " اشترط فى إفادة التقديم الاختصاص أمرين :

أحدهما : أن يجوز تقدير كونه فى الأصل مؤخراً ، على أن يكون فاعلاً فى المعنى فقط كقولك ، " أنا قمت " فإنه يجوز أن تقدر أن أصله " قمت أنا " على أن " أنا " تأكيداً للفاعل الذى هو التاء فى " قمت " فقدم " أنا " وجعل مبتدأ .

وثانيهما : أن يقدر كونه كذلك . فإن انتفى الثانى دون الأصل كالمثال المذكور (وهو أنا قمت) إذا أجرى على الظاهر . وهو أن يقدر

---

(١) النحل : ٧١ .
(٢) الكشاف ٢ / ٣٥٩ .
(٣) روح المعانى ١٣ / ٢١١ ، وانظر حاشية الشهاب ٥ / ٤١٢ .

الكلام من الأصل مبنيا على المبتدأ والخبر ، ولم يقدر تقديم وتأخير أو انتفى الأول بأن يكون المبتدأ اسما ظاهرا فإنه لا يفيد إلا تقوى الحكم .

واستثنى المنكر كما فى نحو " رجل جاءنى " إن قدر أصله "جاءنى "[1] وفى هذا يقول السكاكى فى باب تقديم المسند : " إن الجملة لها اعتباران : " أحدهما : أن يجرى الكلام على الظاهر وهو أن " أنا " (فى قولك أنا عرفت " مبتدأ عرفت خبره ، ولا يقدر تقديم وتأخير ، وثانيهما : أن يقدر أصل النظم " عرفت أنا " و " عرفت أنت " .... ثم يقال قدم أنا وأنت ، فنظم الكلام بالاعتبار الأول لا يفيد إلا تقوى الحكم وبالاعتبار الثانى يفيد التخصيص .... وأما نحو "زيد عرف" ، و"رجل عرف" فليسا من قبيل هو عرف فى احتمال الأمرين على السواء بل حق المعرف حمله على وجه تقوى الحكم وحق المنكر حمله على وجه التخصيص " [2].

وفى باب القصر وفى حديث السكاكى عن التقديم يذكر أن دلالة التقديم على القصر ، بالفحوى وليس بالوضع كما فى بقية طرق القصر فقال : " فالطرق الثلاثة دلالتها على التخصيص بوساطة الوضع وجزم العقل ، ودلالة التقديم عليه وساطة الفحوى وحكم الذوق "[3].

وأما الشيخ ابن عاشور فذكر أن التقديم فى الآية لتقوية الحكم وأنه خال من القصر ، ورد على الزمخشرى فقال : " وأفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى فى قوله : " الله يبسط الرزق " تقوية للحكم وتأكيداً؛ لأن المقصود أن يعلمه الناس ولفت العقول إليه ... وليس المقام مقام حصر كما درج عليه الكشاف ؛ إذ ليس ثمة من يزعم الشركة لله فى ذلك أو من يزعم أن الله لا يفعل ذلك فيقصد الرد عليه بطريق القصر "[4].

---

(١) الإيضاح للخطيب القزوينى شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبدالمنعم خفاجى ٦٤/٢ - ٦٥ .
(٢) مفتاح العلوم ص / ٢٢١ – ٢٢٣ .
(٣) مفتاح العلوم ص / ٢٩٢ .
(٤) التحرير والتنوير ١٣ / ١٣٤ .

وما ذكره السكاكى وابن عاشور فيه نظر ؛ لأن المقبول والراجح ما جاء عند الشيخ عبدالقاهر فى هذا وهو أن المسند إليه المقدم على الخبر الفعلى إما أن يكون مسبوقاً بنفى أولا ، فإن كان مسبوقاً بنفى أفاد القصر ، وإن لم يكن مسبوقاً بنفى فإما أن يفيد التقوية والتوكيد وإما أن يفيد القصر ويفهم ذلك بمعونة السياق وفى هذا قال : " إذا قدمت الفاعل على الفعل وكان الاسم المقدم واقعاً عقب نفى نحو " ما أنا فعلت كذا " أفاد التركيب القصر قطعاً أى قصر نفى الفعل على الاسم المقدم ... وأنه مثبت لغيره على حسب نفى الفعل عموماً وخصوصاً "[1].

أما حال الجملة إذا " ما تقدم فيها المسند إليه على الفعل ولم يكن فى الكلام نفى نحو " أنا فعلت كذا " ، " زيد فعل كذا " فقد بين الشيخ أن تقديم الاسم حينئذ يكون للاهتمام بالفاعل المقدم ، وبيان أن القصد إليه وذلك الاهتمام سببه أمران : أحدهما : جلى لا يشكل - وهو أن الغرض قصر الفعل على المقدم ونفيه عن واحد آخر أو عن جميع ما عدا المقدم - وهو على الأول قصر إضافى ، وعلى الثانى قصر حقيقى ، مثال ذلك أن تقول : " أنا كتبت فى معنى كذا " ... تريد أن تدعى الانفراد بذلك ، وأن ترد على من زعم أن غيرك مشاركك فى الأمر .....

الثانى من سببى الاهتمام بالاسم المقدم : أن يكون الغرض إفادة تقوية الحكم الذى هو ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده وعدم الشك عنه لا قصره عليه مثال ذلك أن تقول : " هو يعطى الجزيل ، " وهو يحب الثناء " لا تريد أن تقصر الفعل عليه ولا أن تنفيه عن غيره وإنما تريد أن تحقق الحكم ، وتمكنه فى نفس السامع وتدفع الشك عنه " [2].

والآية التى نحن بصددها تقدم المسند إليه المعرفة على الخبر الفعلى ولم يسبق بنفى ، وهذا التقديم يحمل على القصر لا على التوكيد

---

(١) دراسات تفصيلية لبلاغة عبدالقاهر للشيخ عبدالهادى العدل ، ص / ٢٥٨ – ٢٥٩ ، وانظر دلائل الإعجاز / ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر ص/٢٦٣ - ٦٤ ، وانظر دلائل الإعجاز / ١٢٨ - ١٢٩ .

وذلك بالنظر إلى السياق قبلها حيث ذكرت الآيات حديث القرآن عن أولئك الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وهؤلاء لا يسندون ما هم فيه من سعة الرزق إلى الله ، وإنما يسندون ذلك إلى الأسباب على الحقيقة أى : إلى دأبهم على العمل كما قال قارون : " إنما أوتيته على علم عندى "[1]، أو أن ذلك الرزق كان بمعونة معبوداتهم ، وبهذا يكون تقديم المسند إليه أفاد القصر ، وذلك لإفراد الله تعالى وحده بالبسط والقدر ، ونفى ذلك عن كل ما يعتقد أنه قادر على فعل ذلك سواء هم أو معبوداتهم، وبالنظر إلى واقع الحال وحقيقة الأمر ، فإنه لا يوجد فى الكون أحد غير الله يبسط الرزق ويقدره ، وبالنظر إلى طرفى القصر فيعد من قصر الصفة على الموصوف . ويمكن أن يعترض علينا فيقال : المعلوم من دراسة القصر أنه دال على التوكيد ؛ لأن جملة القصر بمنزلة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية ، وأن التقديم فى الإثبات يمكن أن يدل على التقوية والتوكيد فهما متحدان فى الدلالة على التوكيد فما الفرق إذن ؟

ولعل الجواب عن ذلك أن يقال : إن القصر فيه إثبات ونفى أى تخصيص صفة بموصوف فلا يتجاوزه إلى غيره ..... أو تخصيص موصوف بصفة فلا يتجاوزها إلى غيرها ..... أما التوكيد فليس فيه ذلك .

ولما كانت سعة الرزق ليست ثابتة وإنما هى متجددة على حسب تغير أحوال الناس من السعة إلى الضيق ومن الضيق إلى السعة عبر القرآن بالمضارع فى قوله تعالى " يبسط ... يقدر " وهذا بخلاف ما لو قال " بسط ... قدر " فيدل على أن المبسوط له لن يتغير حاله ، وكذا المقدور عليه .

ويمكن أن يكون السر فى التعبير عن البسط والقدر بالمضارع هنا هو أن القرآن أراد أن يقول للكفار المغترين بأموالهم : إن البسط لن

---

(١) القصص : ٧٨ .

يدوم ، وإنما يمكن أن يتغير حالكم ويتبدل فتصيروا فقراء ، وكذا حال المسلمين سوف يتغير فلن يظلوا فقراء أبداً كما قال تعالى : " وتلك الأيام نداولها بين الناس "[1].

ولعل السر فى ذكر الفعل " يقدر " هو دفع توهم يمكن أن يرد بأذهان البعض بأن الله تعالى لا يكون منه إلا البسط فقط فذكر الفعل " يقدر " دل على أنه تعالى يكون منه البسط والقدر معاً .

وأما المراد بالبسط فقد قيل : " الباء والسين والطاء أصل واحد وهو امتداد الشئ فى عرض أو غير عرض ... ويد فلان بسط إذا كان منفاقاً والبسطة فى كل شئ السعة "[2] وقيل : " بسط الشئ نشره وتوسعه فتارة يتصور منه الأمران وتارة يتصور منه أحدهما ويقال : بسط الثوب نشره ومنه البساط وذلك اسم لكل مبسوط "[3].

ومن خلال هذا يتضح أن البسط كناية عن الكثرة والسعة ، لأن مادة " بسط " تدل على الامتداد والنشر ، ولازم الاعتداد والنشر الكثرة والسعة ، فالشئ الممتد المنشور يأخذ حيزاً كبيراً بخلاف المطوى .

وأما المراد بالقدر فقد قيل : " وقدرت عليه الثوب قدراً فانقدر أى جاء على المقدار "[4] وقيل : " وقدرت الشئ أقدره وأقدره من التقدير "[5] وقيل : " وقدرت عليه الشئ ضيقته كأنما جعلته بقدر بخلاف ما وصف بغير حساب "[6] فالقدر إذن أن يجئ الشئ على المقدار أو بقدر ، أى : على قدر الحاجة والمال الذى يكون على قدر الحاجة يكون قليلاً ، وعلى هذا فالقدر كناية عن القلة .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .
(٢) معجم مقاييس اللغة (بسط) ١ / ٢٤٧ .
(٣) المفردات للراغب (بسط)، وانظر أساس البلاغة للزمخشرى ٢٤٧/١، ولسان العرب (بسط)
(٤) لسان العرب (قدر) .
(٥) معجم مقاييس اللغة (قدر) ٥ / ٦٢ .
(٦) المفردات للراغب (قدر) .

وقد أصاب الشيخ ابن عاشور فى قوله : إن القدر كناية عن القلة، وفى كلامه نظر ، فى قوله : إن البسط مستعار للكثرة ، يقول : " والبسط مستعار للكثرة وللدوام والقدر كناية عن القلة "[1].

والبسط المسند إلى الله عز وجل قد وقع على الرزق ، وكذا القدر قد وقع على ما وقع عليه البسط ، وقد اتضح من خلال التمهيد المراد بالرزق بأنه : تمكين الإنسان من الانتفاع بالمرزوق ، والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع ، به فشمل المأكول والملبوس والجاه والمنصب والذكاء والفهم والعلوم والمعارف – التى يحصلها الإنسان وينتفع بها – والصحة والعافية والمال والأولاد وكل ما يندرج تحت ما ينتفع به الإنسان .

ولعل السر فى ذكر المفعول به - وهو الرزق - هو الرد على ما يمكن أن يدور بالأذهان من أن البسط والقدر يقع على شئ آخر غير الرزق .

والسر فى التعبير عن المبسوط له أو المقدور عليه بـ " من " الدلالة على أن البسط والقدر لا يختص بمؤمن أو كافر . فالكافر قد يكون أكثر الناس حظاً فى الدنيا ، والغبى كذلك ، وقد يكون المؤمن التقى الورع مقدوراً عليه وكذا الذكى ؛ لأن البسط يدل على الكثرة ، والقدر يدل على القلة ، وبينهما تضاد يؤكد المعنى ويقرره فى الأذهان لأن الضد يبرز حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء ، فهنا أتى هذا التضاد موضحاً ومقرراً لحكمه تعالى وقوة حكمته فى بسط الرزق لهذا ، وقدره على هذا ، وسبحان من يضع الموازين فى نصابها .

والمؤمن يختلف عن الكافر فى تلقى البسط والقدر ، فالمؤمن شاكر لله على نعمه ، صابر عند نزول الضر والفقر ، أما الكافر فعلى العكس من ذلك حيث يكن طاغياً باغياً عند البسط يائساً قانطاً عند مس

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٣٤ .

الضر والفقر ؛ ولذا عبر القرآن تعبيراً فى غاية الدقة عن نفوس الكفار عندما يوسع الله تعالى عليهم الدنيا فقال : " وفرحوا بالحياة الدنيا " لأن الضمير فى قوله : " وفرحوا بالحياة الدنيا " يعود إلى الذين ينقضون عهد الله .

والواو فى قوله " وفرحوا " للاستئناف ؛ يقول الشهاب : " ثم إنه تعالى استأنف النعى على قبح أفعالهم مع ما وسعه عليهم فقال : " وفرحوا .... الخ والمراد بالرزق الدنيوى لا ما يعم الأخروى "(١).

والفرح كما قيل : " انشراح الصدر بلذة عاجلة ، وأكثر ما يكون ذلك فى اللذات البدنية ؛ فلهذا قال : " ولا تفرحوا بما آتاكم " ، وقال : " وفرحوا بالحياة الدنيا "(٢) ؛ لأن الكافر لا يؤمن بالبعث ولا بالنعيم الأخروى ولا بالعذاب فليس له إلا هم واحد هو الدنيا والتمتع فيها كما تتمتع البهائم ، يقول تعالى : " والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم "(٣).

ولم يقل القرآن " وفرحوا ببسط الرزق " أو " وفرحوا بكثرة المال " وإنما قال " وفرحوا بالحياة الدنيا " والفرح لا يكون بالحياة الدنيا؛ لأنها زمن ، وبهذا يحمل التعبير على المجاز المرسل الذى علاقته المحلية ؛ حيث ذكر المحل وهى الحياة الدنيا وأراد ما يحل فيها من كثرة الأموال والسرور بذلك ، يقول البيضاوى : فى قوله : "وفرحوا بالحياة الدنيا " أى " بما بسط لهم فى الدنيا "(٤) ثم يوضح هذا الشهاب فيقول : "وقوله بما بسط لهم فى الدنيا ؛ لأن فرحهم ليس بنفس الدنيا فنسبة الفرح إليها مجازية "(٥) .

---

(١) حاشية الشهاب ٥ / ٤١٢ .
(٢) المفردات للراغب (فرح) .
(٣) محمد : ١٢ .
(٤) حاشية الشهاب على البيضاوى ٥ / ٤١٢ .
(٥) السابق .

والدنيا نعت للحياة ، وسميت بذلك لأنها من الدنو ، وهو القرب ، أو من الدناءة وهى الحقارة ، وعلى كلا المعنيين لا يفرح بها ؛ لأنها دار متاع قليل ، والفرح لا يكون إلا بالدائم الذى لا ينقطع ولا يزول وهى الآخرة ، ولذا قال : " وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع " .

ولما كان هؤلاء القوم لا يقرون بالبعث والحساب جاء هذا التعبير فى سياق القصر بـ " ما وإلا " حيث قصر الحياة الدنيا على المتاع قصر موصوف على صفة ، ويعد هذا القصر من الإضافى ؛ لأنهم لانهماكهم فى الدنيا اعتقدوا أنها دار خلود وأنهم مقيمون فيها أبداً ، فقصرها على المتاع ونفى عنها الخلود ، يقول الألوسى : " وما الحياة الدنيا " أى كائنة فى جنب الآخرة ، فالجار والمجرور فى موقع الحال وليس متعلقاً بالحياة ولا بالدنيا كما قال أبو البقاء ؛ لأنهما ليسا منها وإسناد متاع فى قوله "إلا متاع " إلى الحياة الدنيا يحتمل أن يكون مجازياً ويحتمل أن يكون حقيقياً والمراد أنها ليست إلا شيئاً نزراً يتمتع به كعجالة الراكب ، والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة "[1].

---

(١) روح المعانى للألوسى ١٣ / ٢١٢ وانظر حاشية الشهاب ٥ / ٤١٢ .

آية الإسراء

يقول الله تبارك وتعالى :

" إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا "(١).

والسياق الذى جاء قبل هذه الآية هو الدعوة إلى مجاهدة النفس والسيطرة عليها ، وذلك بإعطاء ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم التى كفلها لهم الشرع دون تبذير أو إسراف على سبيل الزكاة أو الصدقة ، وأما من لم يبلغ النصاب أو ليس عنده ما يتصدق به فيكون رده على طالبى المال رداً ميسوراً يقول تبارك وتعالى :

" وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً "(٢).

ثم يمضى السياق فى النهى عن البخل والإسراف معاً مما يدل على أن الإسلام يريد الوسطية فى الإنفاق ، يقول تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً "(٣).

والخطاب فى هذا السياق وإن كان موجهاً للرسول ﷺ إلا أنه موجه لأمته ، وفى هذا يقول القرطبى : " وهذا كله خطاب للنبى ﷺ والمراد به أمته ، وكثيراً ما جاء فى القرآن فإن النبى لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب فى ذلك "(٤).

ثم تأتى الآية التى نحن بصددها تعليلاً لما سبق فى قوله تعالى : "وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها .... " وأن قوله

---

(١) الإسراء : ٣٠ .
(٢) الإسراء : ٢٦ - ٢٨ .
(٣) الإسراء : ٢٩ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٥٠ .

تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " معترض للتوكيد يقول الألوسى : " إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء تعليل لقوله سبحانه : " وإما تعرضن عنهم " كأنه قيل : إن أعرضت عنهم لفقد الرزق فقل لهم قولا ميسوراً ، ولا تهتم لذلك فإن ذلك ليس لهوان منك عليه تعالى ، بل لأن بيده جل وعلا مقاليد الرزق ، وهو سبحانه يوسعه على بعض ويضيقه على بعض حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة ، فما يعرض لك فى بعض الأحيان من ضيق الحال الذى يحوجك إلى الإعراض ليس إلا لمصلحتك فيكون قوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ... " معترضاً تأكيداً لمعنى ما تقتضيه حكمته عز وجل من القبض والبسط"[1] وقيل : هى تعليل لقوله تعالى : " وآت ذا القربى حقه ..." ولقوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " يقول الشيخ ابن عاشور : " موقع هذه الجملة موقع اعتراض بالتعليل لما تقدم من الأمر بإيتاء ذى القربى والمساكين ، والنهى عن التبذير وعن الإمساك المفيد الأمر بالقصد بأن هذا واجب الناس فى أموالهم وواجبهم نحو قرابتهم وضعفاء عشائرهم ، فعليهم أن يمتثلوا ما أمرهم الله من ذلك ، وليس الشح بمبقٍ مال الشحيح لنفسه ولا التبذير بمغنٍ من يبذر فيهم المال ، فإن الله قدر لكل نفس رزقها "[2].

فالمقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو دعوة الإنسان إلى الاعتدال فى الإنفاق ؛ لأن الله قدر لكل نفس رزقها .

وقد تأكدت هذه الآية بعدة مؤكدات منها : تصدير الجملة بـ "إن"، واسميه الجملة ، والقصر بتقديم المسند إليه " ربك " على المسند "يبسط" ولعل السر فى مجئ هذه المؤكدات ، أن السياق السابق قد جاءت فيه الدعوة إلى الإنفاق أى : إعطاء الزكاة لأصحابها حيث عبر عنها القرآن بالحق مما يدل على وجوب إخراجها ، والكثير من الناس

---

(١) روح المعانى ١٥ / ٦٠ ، وانظر تفسير أبى السعود ٥ / ١٦٩ .
(٢) التحرير والتنوير ١٥ / ٧٦ .

عند إخراجها يتجاذب أطراف الأحاديث بينه وبين نفسه ، فهو إما أن ينتصر على نفسه وشهواتها وإما أن يهزم ، وبالتالى ينزل منزلة المنكر فجاءت هذه المؤكدات لتحرك الأمر فى نفسه مرة ثانية ، ثم ما تلبث أن تزيل حالة التردد والإنكار كى يخرج الزكاة وهو مطمئن إذا أدرك أن الآمر بها هو الباسط القابض ، وهو الذى بسط له رزقه ، ولذلك جاء اسم " إن " وهو " رب " مضافاً إلى كاف الخطاب " ربك " يقول الراغب : " الرب فى الأصل التربية وهو إنشاء الشئ حالاً فحالاً إلى حد التمام يقال : رَبَّه وربَّاه وربيه .... فالرب مصدر مستعار للفاعل ، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات "(١).

وقيل أيضاً : " والمقصود أنه عرف رسوله ﷺ كونه رباً والرب هو الذى يربى المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض "(٢).

أى أن الله الذى رباك - أى : أوجدك من العدم - ثم تكفل برزقك وأنت جنين فى بطن أمك ، وأجرى لك الرزق من ثدى أمك ثم وسعه عليك ، فإذا ما أمرك بإخراج جزء من أموالك تتردد وتنكر وتتكبر .

ويمكن أن يكون السر فى مجئ هذا المؤكدات أيضا هو أن القرآن يخاطب الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ومنهم المؤمن بأن البسط والقدر من الله ، ومنهم الشاك ، ومنهم المنكر الذى لا يعلم إلا شيئاً واحداً هو أن الجد سبب البسط والكسل والتواكل سبب القدر ، فجاءت هذه المؤكدات لتدفع أى إنكار بأن الله هو الباسط القابض ، وكأن القرآن يخاطب كل فرد على حدة فى قوله " ربك " .

ولعل السر فى ذكر المسند المضارع " يبسط .... ويقدر " هو أن الله تعالى أراد أن يقول للمدعوين إلى الإنفاق : إنكم لن تظلوا على حالكم

---

(١) المفردات للراغب (رب) .
(٢) مفاتيح الغيب ١٠ / ٦٩ .

من السعة ، ولن يظل الفقراء على حالهم من الضيق ، إنما يمكن أن تكونوا فقراء فتمدون عيونكم إلى ما فى أيدى من وسع الله عليهم ، ويريد أن يقول للفقراء : إذا وسع الله عليكم فلا تبخلوا على إخوانكم .

وفيه الحض على الإنفاق قبل تغير الحال وتبدله ، وفيه أيضاً أمل للفقراء بأن الله تعالى سوف يغير حالهم .

وقد سبق فى آية الرعد إيجاز بالحذف لدلالة ما قبله عليه فى قوله : " ويقدر " أى : " ويقدر الرزق على من يشاء " ثم يأتى قوله تعالى : " إنه كان بعباده خبيراً بصيراً " تعليلاً لما سبق ؛ أى : يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ، ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر ، الذى بيده خزائن السماوات والأرض[1].

ومعنى " خبيراً " ذو خبرة بعباده ومن الذى تصلحه السعة فى الرزق وتفسده ، ومن الذى يصلحه الاقتار والضيق ويهلكه " بصيرا " ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم ، يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه " [2].

ولعل السر فى مجئ التوكيد بـ " إن " فى قوله تعالى : " إنه كان بعباده خبيراً بصيراً " هو تقرير حقيقة مهمة ، وهى أن الله تعالى قد علم أزلاً ما به صلاح أحوال عباده من الأمر بالإنفاق ومن الاقتصاد فيه ومن البسط للبعض والقدر على البعض الآخر .

وقد أضافهم إلى نفسه فى قوله : " عباده " للدلالة على أنه يرفق بهم ويرحمهم فى كل ما يدعوهم إليه وفى كل ما يقدر لهم من سعة أو ضيق .

والتعبير بالماضى فى قوله : " كان " لا تدل على أنه كان خبيراً بصيراً ، والآن انتفى عنه ذلك ، ولكن كان ولم يزل بعباده خبيراً بصيراً.

---

(١) تفسير أبى السعود بتصرف يسير جداً ٥ / ١٦٩ .
(٢) جامع البيان للطبرى ١٥ / ٧٨ .

آية القصص

يقول الله تبارك وتعالى :

" وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون "(١).

والسياق قبل هذه الآية يتحدث القرآن فيه عن تنوع النفوس البشرية تجاه إنعام الله عليها بالمال ، فيذكر أن من النفوس من تتجه نحو المال وتترك كل ما عداه كما قال تعالى : " وتحبون المال حباً جماً "(٢) وتبيع نعيم الآخرة الدائم بنعيم الدنيا الزائل ، ومثل هذا النوع لا يتأثر بنصح أو إرشاد إنما يعرض عن كل كلمة حق تقال له ، وهذا ما كان قارون الذى كان من قوم سيدنا موسى - عليه السلام - حيث بغى وطغى حينما كثرت أمواله كثرة مفرطة ، فكثرة المال مدعاة إلى البغى والطغيان، يقول الله تعالى : " كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى "(٣). وقد ازداد طغياناً فنسب هذا الرزق إلى نفسه ونسى خالقه ورازقه .

ومن النفوس من تدرك أن المال ما هو إلا وسيلة ، وأنه ليس ملك من فى يده وأنه عارية ، وأن الفقراء والمساكين لهم حق فى هذا المال يجب أن يؤدى وتأدية هذا الحق هو شكر المنعم على نعمه ، وهذه حال الذين توجهوا إلى قارون بالنصح والإرشاد إلى هذه الحقيقة .

ومن النفوس من تغرهم الدنيا بزخارفها عندما يجدون أن الله تعالى قد أنعم على أحد من عباده بنعمة المال ، وهذه حال الذين تمنوا أن يكون لهم من الدنيا مثل قارون حين شاهدوه فى زينته .

---

(١) القصص : ٨٢ .
(٢) الفجر : ٢٠ .
(٣) العلق : ٦-٧ .

ومن النفوس من ترضى بما قدر الله تعالى لها ، ولا تنظر إلى ما فى يد غيرها ؛ لأنها على يقين بأن ما هم فيه من الله فيرضون بذلك غاية الرضا وهم الذين توجهوا إلى المتمنين بالنصح ، يقول الله تبارك وتعالى : " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك.ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين"(١).

وقد أحدث الخسف بقارون تغيراً فى موقف المتمنين مكانه من كثرة المال وأدركوا حقيقة إرادة الله لهم من القدر ، يقول تعالى : " وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون"(٢).

يقول الرازى : " اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون فى زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى – عليه السلام – وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وقسمته والى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله "(٣).

---

(١) القصص : ٧٦-٨١ .
(٢) القصص : ٨٢ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٢ / ٣٢٣ .

إذن فالمقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو إدراك المتمنين لخطئهم وندمهم على تمنيهم مكانة قارون بعد أن خسف الله به وبداره الأرض .

والفعل " أصبح " قد يقصد به الفجر أو أول النهار .....

وأصبح : دخل فى الصباح ، ويأتى أصبح بمعنى صار [١]، وقيل : " وأصبح وصار ولكنه عبر به لمقابلة الأمس "[٢].

وأما المراد بالأمس فقد قيل " قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذى قبل يومك ، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة "[٣] حيث شبه الزمن الماضى القريب باليوم الذى قبل يومك بجامع القرب فى كل ، وهى من قبيل الاستعارة الأصلية وقيل : " وقوله " بالأمس " متعلق بتمنوا أو بمكانه وجعل الأمس مجازاً عن القرب كما فى قوله تعالى : " كأن لم تغن بالأمس "[٤] وهو شائع بمنزلة الحقيقة ؛ إذ المراد قربه لا تعيين زمانه ، وإن جاز حمله على الحقيقة "[٥].

فالفعل " أصبح إذا حمل على ظاهره دل على أن الخسف به وبداره كان ليلاً ، لأن الخسف ليلاً هو أفظع العذاب إذ الليل مقر الراحة والسكون ، و" الأمس " يحتمل أن يراد به الزمان الماضى ، ويحتمل أن يراد به ما قبل الخسف وهو يوم التمنى ويدل عليه العطف بالفاء التى تقتضى التعقيب فى قوله " فخسفنا " [٦].

أما إذا لم يحمل " أصبح " على ظاهره ؛ فإن الخسف كان نهاراً ويحمل الأمس على الزمن الماضى القريب .

ومقول قول المتمنين : " ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون "[٧].

---

(١) القاموس المحيط فصل الصاد باب الحاء ١ / ٢٣١ .
(٢) نظم الدرر للبقاعى ١٤ / ٢٦٠ .
(٣) الكشاف ٣ / ١٩٢ .
(٤) يونس : ٢٤ .
(٥) حاشية الشهاب على البيضاوى ٧ / ٣٢٦ .
(٦) البحر المحيط ٧ / ١٣٥ .
(٧) القصص : ٨٢ .

وقد اختلف فى " ويكأن " فقيل : " وى " عند الخليل وسيبويه اسم فعل ومعناها : أعجب ، وتكون للتحسر والتندم أيضاً كما صرحوا به ، وعند الخليل أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم " وى " ، وكل من ندم وأراد إظهار ندمه قال " وى " ، ولعل الأظهر إرادة التعجب بأن يكونوا تعجبوا أولا مما وقع وقالوا ثانياً " كأن الله يبسط .... " و " كأن " فيه عارية من معنى التشبيه جئ بها للتحقيق كما قيل:

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الأرض ليس بها هشام

وقيل هى غير عارية عن ذلك والمراد تشبيه الحال المطلق بما فى حيزها إشارة إلى أنه لتحققه وشهرته يصلح أن يشبه به كل شئ وهو كما ترى [1].

وقد قيل فى إعراب الآية : إن " وى " اسم فعل مضارع معناه أتعجب والكاف حرف جر و " أن " مشبه بالفعل وهى مع ما فى حيزها فى محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بـ " وى " ومعنى الكاف هنا التعليل لا التشبيه ، ولفظ الجلالة اسمها وجملة " يبسط الرزق " خبر أن ، والرزق مفعول به " ولمن " متعلقان بـ " يبسط " وجملة " يشاء " صلة و " من عباده " حال و " يقدر " عطف على " يبسط "[2].

ومن خلال ما ذكر يتضح أن " وى " اسم فعل مضارع معناه أتعجب ، وهى لا تخلو من معنى الندم على التمنى ، حيث تعجبوا من أمر لم يكن يخطر لهم على بال ، وهو الخسف بقارون وهو على هذه الحالة من كثرة الأموال كأن صاحب الأموال الكثيرة لا يصاب بأدنى أذى ، أو أنهم قد توهموا أن ما فيه قارون دليل على أن الله راض عنه فلا يصاب بمكروه ، وقد ندموا على تمنيهم حالته ، فلو أغدقت عليهم النعم وتحققت أمنيتهم التى تمنوها لنزل بهم ما نزل به .

---

(١) روح المعانى للألوسى ٢٠ / ١٨٤ ، وانظر الكشاف ٣ / ١٩٢.

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٧ / ٣٧٨ .

وهناك معنى آخر قد دار فى نفوسهم حين شاهدوا أو علموا ما نزل بقارون هو الرضا بما قسم الله لهم من رزق ، ولذلك قالوا : إن البسط ليس دليل الرضا وإن القدر ليس دليل الغضب ، وإنما كل هذا ابتلاء واختيار ، ولكن تغيب عن العقول الحكمة من وراء ذلك . فما شاهدوه قد غير معتقدهم نحو البسط والقدر .

ولعل السر فى التوكيد بـ " أن " الداخلة عليها الكاف واسمية الجملة وتقديم المسند إليه على المسند المفيد للقصر أن الكثير من الناس يعتقد أن البسط من العمل وأن القدر من الكسل أو يعتقد أن البسط دليل الرضا والقدر دليل الغضب ، فجاءت هذه المؤكدات لإزالة أى إنكار أو لإزالة أى معتقد خاطئ نحو البسط والقدر ويمكن أن يكون السر فى مجئ هذه المؤكدات التقرير ، أى : تقرير أن البسط مقدر وأن القدر كذلك ، فلا يسر المبسوط بما هو فيه ولا يحزن المقدور عليه من ضيق ذات اليد .

ومن خلال ما نزل بقارون من الخسف يتضح أن البسط لن يدوم وأن القدر كذلك ، وإنما الإنسان يكون مبسوطاً له ثم يتحول إلى مقدور عليه ، والمقدور عليه يغير الله حاله إلى مبسوط له ، إذن ليس هناك ثبات فى البسط والقدر ، وقد أعلن المتمنون ذلك ، لأن ذلك جاء حكاية على لسانهم ، ولذا عبر القرآن الكريم بالمسند المضارع هنا فى قوله : " يبسط ... ويقدر " .

والبسط المسند إلى الله قد وقع على الرزق ويقصدون به هنا المال الكثير ، ولا يقف المراد بالزق عند المال فقط لما ذكر ، إنما يقصد به كل ما يدخل فى عموم الرزق وينتفع الإنسان به من مطعم أو ملبس أو صحة أو جاه ومنصب ....

وقد أشرت إلى السر فى ذكر المفعول به وهو عدم توهم وقوع البسط والقدر على غير الرزق .

ولا يخفى الطباق بين البسط والقدر وتقريره الحكم لله عز وجل وأنه ربهم يدبر أمرهم بحكمته ويعلم ما يصلح شئونهم إما بالبسط أو بالقدر.

وقد جاء فى هذه الآية " من عباده " وقد ذكر السر فى مجيئه الخطيب الاسكافى فقال : " وأما قوله فى سورة القصص : " وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ..." والمعنى انتبهوا لأن الله يوسع الرزق لمن يشاء لا لكرامته كما وسع على قارون ، ويضيقه على من يشاء لا لهوانه كما ضيق على كثير ممن آمن به ، ثم قال حكاية عنهم : " لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا " أى لولا مَنَّ الله علينا بأن صرف عنا الغنى الذى يقع الكفر معه لكفرنا نحن مثل كفره ، ولخسف بنا كما خسف به ، فقوله : " لمن يشاء من عباده ويقدر " أى يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر لمن يشاء قدره عليه فاضمر الفعل الثانى مثل ما تعدى إليه الفعل الأول وهو " من يشاء " لعلم المخاطب به ، وأنه فى المعنى غير الأول وإن كان فى اللفظ مثله"[1].

وقيل السر فى ذكر : " من عباده " الإيماء إلى أنه فى بسطه الأرزاق وقدرها متصرف المالك فى ملكه ؛ إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلهم عبيده فحقهم الرضا بما قسم لهم مولاهم "[2].

وقد جاء فى تعبير المتمنين " لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا " فى سياق " لولا " الدالة على امتناع الوجود أى امتناع الخسف لوجود المنّ من الله عليهم ، وقد فسر المنُّ بالغنى كما جاء فى كلام الخطيب الإسكافى ، أى الغنى الذى يكون معه الكفر ، وقيل : المنُّ : الإيمان والرحمة والعصمة كما قال القرطبى " لولا أنْ مَنَّ علينا " بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغى والبطر "[3].

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل / ٢٥٧ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٨٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٣١ .

ثم يأتى قوله تعالى " ويكانه لا يفلح الكافرون " وقبله " ويكأن " وقد يظن أن هذا من قبيل التكرار ، وهو ليس كذلك ؛ لأن كل واحد منهما متصل بغير ما اتصل به الآخر[1] و" ويكأن " الأولى متصلة بالبسط والقدر ، والثانية متصلة بنفى الفلاح عن الكافرين .

وقد أرادوا تقرير تلك الحقيقة وهى عدم فلاح الكافرين فى الدنيا والآخرة فقالوا : " ويكأنه " ؛ لأن الضمير – الهاء – يعود إلى لفظ الجلالة الله قبله .

والكفر هنا يمكن أن يكون المراد به كفر النعمة بدلالة السياق أو الكافرون بوجود الله يقول البيضاوى : " ويكأنه لا يفلح الكافرون " لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة "[2].

---

(١) أسرار التكرار للكرمانى / ١٦٢ .

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوى ٧ / ٣٢٦ .

آية العنكبوت

يقول الله تبارك وتعالى :

" **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم** "(١).

والسياق الذى قبل هذه الآية هو الدلالة على تفرد الله تعالى بأرزاق المخلوقات جميعاً ، القادر منها على الكسب وغير القادر يقول الله تعالى : " وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم "(٢).

وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ لما أمر من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم : كيف أقدم بلدة ليس لى فيها معيشة ؟ "(٣) وهذه الآية تتفق مع آية هود فى الدلالة على أن الله تعالى وحده متكفل وضامن لأرزاق المخلوقات جميعاً ما يقدر منها على الكسب ومن لا يقدر ، يقول تعالى : " وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين "(٤).

وهذه الآية قد بدأت بـ " كأين " وهى " اسم مركب من كاف التشبيه و " أى " المنون ، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون ؛ لأن التنوين لما دخل فى التركيب أشبه النون الأصلية "(٥).

وقد قيل أيضاً : " كأين " كلمة مركبة من كاف التشبيه و " أى " التى تستعمل استعمال " مَنْ " و " ما " ركبتا ، وجعل المركب بمعنى

---

(١) العنكبوت : ٦٢ .
(٢) العنكبوت : ٦٠ .
(٣) الكشاف ٣ / ٢١١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٣٧٣ .
(٤) هود : ٦ .
(٥) مغنى اللبيب ٢ / ١٠٩ ـ ١١٠ .

" كم " ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب " [1] والدواب : " ما دب من الحيوان ، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخره إلا ابن آدم والنمل والفأر " [2] .

والمراد بقوله تعالى : " لا تحمل رزقها " لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله [3] وقيل : " لا تدخره إنما تصبح فيرزقها الله " [4] .

فليس هناك مخلوق فى الكون إلا ورزقه على الله ، وقد فهم ذلك من استغراق الجنس بـ " مِنْ " وأسلوب القصر فى قوله : " الله يرزقها" حيث قدم المسند إليه على القصر ، أى أن الله يرزقها لا غيره ، دون أن يقول : " يرزقها الله " فلماذا يعبد غيره مما ليس بيده رزقه[5] ؟ فهو تعالى يقيض لها رزقها على ضعفها ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم " [6] وقيل : " إنه تعالى يسوى بين الحريص والمتوكل فى رزقه وبين الراغب والقانع وبين الحيول والعاجز حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه " [7] .

ويمكن أن يقال : من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ؟

والجواب عن ذلك من ثلاثة أدلة نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق ، أما بالنظر إلى الرزق ؛ فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق ، وأما بالنظر إلى المرتزق ، فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظماً ولحماً وشحماً وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى ،

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٢٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٣٧٤ .
(٣) محاسن التأويل للقاسمى ١٣ / ٤٧٦١ .
(٤) الكشاف ٣ / ٢١١ .
(٥) التحرير والتنوير بتصرف ٢١ / ٢٥ .
(٦) محاسن التأويل ١٣ / ٤٧٦١ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٣٧٤ .

حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى ، وبمحض قدرته وإرادته فهو الذى يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء " [1] .

ولما كان الله تعالى متكفلاً بأرزاق الجميع قدم الدواب على البشر فقال : " الله يرزقها " وعطف عليها البشر فقال : " وإياكم " يقول الشهاب " فإذا تكفل برزق كل شئ حتى صغار الهوامّ لزم العاقل ذلك ، ولذا قدمها ولم يقل يرزقكم وإياها " [2] . ثم يأتى قوله تعالى : " وهو السميع العليم " متسقاً مع سياق الآية ؛ لأنه " سميع إذا طلبتم الرزق يسمع ويجيب عليم إن سكتم لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم "[3].

ثم يمضى السياق فى بيان إقرار المشركين بأن الله تعالى هو الخالق للكون ، فلماذا لم يؤمنوا ؟ يقول الله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون"[4].

وقد جاءت هذه الآية معترضة بين قوله تعالى " وكأين من دابة وبين قوله تعالى " الله يبسط الرزق " ، لأن قوله تعالى : " الله يبسط الرزق " تكميل لمعنى قوله سبحانه : " الله يرزقها وإياكم" ؛ لأن الأول كلام فى المرزوق وعمومه ، وهذا كلام فى الرزق وبسطه وقتره ، وقوله سبحانه : " ولئن سألتهم " معترض لتوكيد معنى الآيتين ، وتعريض بأن الذين اعتمدتم عليهم فى الرزق مُقرُّون بقدرتنا وبقوتنا كقوله تعالى : " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين "[5] . قاله العلامة الطيبى : وقال صاحب الكشف قدس سره : اعترض ليفيدان أن الخالق

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٢٣ بتصرف .
(٢) حاشية الشهاب ٧ / ٣٦٤ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٢٤ .
(٤) العنكبوت : ٦١ .
(٥) الذاريات : ٥٨ .

هو الرازق ، وأن من أفاض ابتداء وأوجد أولى بأن يقدر على الإبقاء وأكد به ما ضمن قوله عز وجل : " وعلى ربهم يتوكلون " (١).

وقد فصل بين قوله سبحانه : " ولئن سألتهم من خلق السماوات الأرض ... " وبين قوله تعالى : " الله يبسط الرزق " لسر بلاغى هو كمال الانقطاع بلا إيهام ؛ حيث اختلفتا خبراً وإنشاء ، إذ ليست هناك مناسبة خاصة بينهما ، إنما هناك مناسبة عامة هى أنه تعالى : " لما بين الخلق ذكر الرزق ؛ لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق فقال : المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه علىٌّ الشأن والله الذى خلق السماوات علىٌّ الشأن جلى البرهان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً " (٢).

وبعد هذا يتضح أن المقام هنا هو تطمين قلوب المسلمين الذين خافوا الفقر إذا هاجروا ؛ لأن الله تعالى يوسع الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء ، وقد وسع على هؤلاء المهاجرين بعد الفتوحات الإسلامية .

فمن مظاهر التطمين أيضاً التعبير عن البسط والقدر بالمضارع فى قوله تعالى : " يبسط ... ويقدر " إذ ليس هناك ثبوت ودوام للبسط أو للقدر .

ولما كان المسلمون الذين أمروا بالهجرة قد خافوا الفقر ؛ والخائف دائماً متردد فى فعل ما هو مقدم عليه ، جاء التعبير القرآنى مؤكداً بواسطة أسلوب القصر الذى طريقه تقديم المسند إليه على المسند لرفع هذا التردد ، ولبيان أن البسط والقدر إنما هو من الله وحده ، ويمكن أن يكون التوكيد بأسلوب القصر لرد اعتقاد المشركين بأن البسط والقدر إنما يكون بمساعدة الأصنام التى تتخذ آلهة من دون الله ، ويجوز أن يكون التوكيد لرد اعتقاد من يعتقد أن البسط مرتبط بالعمل والقدر مرتبط بالكسل .

---

(١) روح المعانى ١٢ / ١٨ بتصرف .
(٢) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٢٦ .

والآية هنا تختلف عن الرعد والإسراء والقصص ، وهذا يرجع إلى اختلاف السياق فى كل واحدة حيث جاء فيها " من عباده " و " له " وقد تحدث عن سر مجئ هذا فى هذه السورة الكرمانى والإسكافى والغرناطى ، ومن خلال ما قالوه اتضح أن الكرمانى قد أوجز ؛ لأنه قد سبقهما وقد فصل الإسكافى ، وأما الغرناطى فقد أضاف شيئاً هو ارتباط الآية بسياق العديد من الآيات قبلها .

يقول الكرمانى : " قوله " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له " وفى القصص " يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " وفى الرعد والشورى " لمن يشاء ويقدر " ، لأن ما فى هذه السورة اتصل بقوله " وكأين من دابة لا تحمل رزقها ... " الآية وفيها عموم فصار تقدير الآية " يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أحياناً ويقدر له أحياناً ، لأن الضمير يعود إلى " مَنْ " وقيل : يقدر له البسط من التقدير "(١) .

ويقول الإسكافى : " أما الأولى فى سورة العنكبوت ، فإنها جاءت بعد قوله : " وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم " فلما ذكر أن الله تعالى هو رازق جميع الحيوانات ما ادخر منها كالنمل وما لم يدخر كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ، فبين الله انه كما كان فى غيرنا من الحيوان ما هو موسع ما هو موسع عليه وما هو مضيق عليه ، كذلك الأمر فينا ، ثم قال : " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له " وكان بع القسمة الأولى من يبسط له الرزق ويضيق عليه فى أخرى فقال " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له " فالهاء فى " له " ترجع إلى ما شاء من عباده و " من يشاء " مفعول بـ " بسط " فكان " ويقدر له " هو من يبسط فى وقتين مختلفين فاقتضى هذا المكان اللفظ الذى جاء فيه بالمعنى الذى هو غير الأول من جميع البسط والقبض لواحد فى حالين " (٢) .

---

(١) أسرار التكرار ص / ١٦٥ .

(٢) درة التنزيل وغرة التاويل ص / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

وأما الغرناطى فقد قال : " إن آية العنكبوت لما تقدم قبلها بقصة سيدنا إبراهيم قوله لقومه : " إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق " [١] ثم ضرب سبحانه مثلاً لما عُبِدَ من دونه فقال : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ..." [٢] ثم آنس عباده المؤمنين بقوله : " يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة "[٣] . ثم قال : " وكأين من دابة لا تحمل رزقها ... " فأخبر سبحانه أنه المنفرد برزق الكل كما انفرد بخلقهم ، فناسب هذا قوله تعالى : " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده " فخص بعد أن عم بقوله : " الله يرزقها وإياكم " تشريفاً للمؤمنين ليستأنسوا بما يجرى من الضربين ويذكروه فى حال القبض والبسط ، فالإضافة إضافة تشريف " [٤] .

ولعل السر فى مجئ " إنَّ " فى قوله تعالى : " إنَّ الله بكل شئ عليم " هو توكيد الحقيقة التى لا تغيب عن ذوى البصائر والعقول ، وهى عدم خفاء شئ من أحوال جميع المخلوقات - الناس والدواب - على الله تعالى ، وأنه تعالى حين يوسع الرزق أو يضيقه لا يكون هذا إلا عن علم وحكمة فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له ، أو فيعلم أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته " [٥] .

ويقول الرازى : " إن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق " [٦] .

---

(١) العنكبوت : ١٧ .
(٢) العنكبوت : ٤١ .
(٣) العنكبوت : ٥٦ .
(٤) ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل بتوجيه المتشابه اللفظ من أى التنزيل ٢ / ٥٦٦ – ٥٦٧ .
(٥) تفسير أبى السعود ٧ / ٦ .
(٦) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٢٧ .

آية الروم

يقول الله تبارك وتعالى :

" أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنَّ فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " (١) .

والسياق قبل هذه الآية يبين القرآن فيه أحوال المشركين الذين عبر عنهم بالناس ، فيذكر أن هؤلاء يلجأون بفطرتهم إلى خالقهم عندما تنزل بهم شدة من مرض أو فقر ... ولا يملكون دفعه عن أنفسهم ، فلا كاشف للضر إلا الله تعالى ، يقول تعالى : " وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " (٢) . وأما حينما يغدق عليهم النعم كالمال والصحة والجاه ... ينسون خالقهم ، ويسندون النعم إما إلى معبوداته ، وإما إلى أنفسهم حيث اجتهدوا وفكروا ... يقول تعالى : " وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون " (٣) .

يقول الطبرى : " وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلاهاً آخر ضرُ فأصابتهم شدة وجدوب وقحوط ... أخلصوا لربهم التوحيد وأفردوه بالدعاء والتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه تائبين إليه من شركهم وكفرهم ... ثم إذا كشف ربهم تعالى ذكره عنهم ذلك الضر وفرَّجه عنهم وأصابهم برخاء وخصب وسعة ... إذا جماعة منهم بربهم ... يعبدون معه الآلهة والأوثان " (٤) .

ثم يهددهم الله تعالى ويتوعدهم بالعذاب فيقول تعالى : " ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون " (٥) .

---

(١) الروم : ٣٧ .
(٢) الأنعام : ١٧ .
(٣) الروم : ٣٣ .
(٤) جامع البيان للطبرى ٢١ / ٤٣ .
(٥) الروم : ٣٤ .

والتهديد والوعيد قد فهم من معنى اللام فى قوله : " ليكفروا " والأمر فى قوله : " فتمتعوا " يقول القرطبى : " قيل : هى لام كى . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد كما قال عز وجل : " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " " فتمتعوا فسوف تعلمون " تهديد ووعيد " [١] ولذا قال الزمخشرى : " فتمتعوا " نظير " اعملوا ما شئتم " [٢] .

ثم ينكر عليهم أن تكون لديهم حجة تشهد بأنهم على حق فى شركهم يقول تعالى : " أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون " [٣] .

وفى معنى الآية يقول الزمخشرى : " ويحتمل أن يكون المعنى : أم أنزلنا عليهم ذا سلطان : أى ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذى بسببه يشركون " [٤] أو " أم أنزلنا على هؤلاء الذين يشركون فى عبادتنا الآلهة والأوثان كتابا بتصديق ما يقولون وبحقيقة ما يفعلون ... فذلك الكتاب ينطق بصحة شركهم " [٥] .

ثم يذكر القرآن أن من أحوالهم العجيبة شدة الفرح عند إغداق النعم عليهم ، واليأس والقنوط عند نزول الضر بهم بسبب شركهم ، يقول تعالى : " وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " [٦] .

وهذه الآية لا تختلف عما سبقها فى الدلالة على فرح الناس بالنعمة ، إلا أنها تضيف أن الناس يصابون باليأس والقنوط من روح الله عندما ينزل ضر بسبب ذنوبهم بدلاً من الرجوع إليه ، ويقول الرازى : " لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٣ .
(٢) الكشاف ٣ / ٢٢٢ .
(٣) الروم : ٣٥ .
(٤) الكشاف ٣ / ٢٢٣ .
(٥) جامع البيان ٢١ / ٤٤ .
(٦) الروم : ٣٦ .

من تكون عبادته لله متعلقة بالدنيا فإذا آتاه رضى ، وإذا منعه سخط وقنط ، ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك ؛ بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء"[1].

والكثير من المسلمين يكون حالهم كحال هؤلاء ، فهم ليسوا على درجة واحدة فى تلقى الضر وإذاقة الرحمة ؛ ولذلك قال : " الناس " ولم يقل : المشركين .

ثم ينكر القرآن على المشركين عدم الثبات على حالة واحدة فى تلقى الضر والرحمة ، ويوبخهم على عدم النظر فيما يحدث لهم من تبدل وتغير من مس الضر وإذاقة الرحمة ، وعدم النظر والتدبر فى أحوال من حولهم المتقلبة بأن يوسع على هذا ويضيق على ذاك ، فلو نظروا نظر المتأمل لصبروا على الضر وشكروا على النعمة ، يقول تعالى :

" أولم يروا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " [2] .

فهذه الآية كما قيل : " أشبه بتعقيب على الآية التى قبلها وهى " وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ... " ذلك أنه لو نظر الإنسان إلى أحوال الدنيا وتقلبات الأيام وتبدل الأحوال بالناس ، ثم كان له من هذا النظر عبرة وموعظة لكان له ذلك موقف رشيد حكيم مع ما يبتلى الله سبحانه العباد من نعم ونقم ، فإذا ساق الله تعالى مزيداً من النعم والإحسان لم يستبد به الفرح ولم يأخذه الغرور ، لأنه يعلم أن ذلك إلى تبديل وتحويل وزوال ، وأنه إذا مسه سوء وأصابه ضر لم يقتله الجزع ولم يخنقه اليأس والقنوط ؛ لأنه يعلم بإيمانه بالله أن تلك الحال لن تدوم وأن مع العسر يسرا " [3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٧٤ .

(٢) الروم : ٣٧ .

(٣) انظر البحر المحيط ٧ / ١٧٤ ، والتفسير القرآنى للقرآن ٦ / ٥٢٣ .

وأما المقام هنا فهو بيان حال المشركين فى السراء والضراء ، وأنهم لا يتلقون الضراء كما يتلقون السراء بخلاف المؤمن الحق الذين يكون حاله فى الأمرين سواء .

والرؤية هنا كما يفهم من كلام الزمخشرى والرازى علمية حيث يقول الزمخشرى : " ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض ، فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته؟ "[1].

وأما الألوسى فقد رأى أن الرؤية بصرية حيث قال : "أولم يروا" أى : أولم ينظروا ولم يشاهدوا والمراد إنكار فرحهم وقنوطهم فى حالتى الرخاء والشدة ، أى : أولم يروا ذلك ؛ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين " [2] ، ويجوز أن تحمل الرؤية على أنها بصرية وعلمية ، لأنهم قد شاهدوا ورأوا أحوال الناس وتبدلها وتغيرها من البسط تارة والقبض أخرى ، وصار هذا معلوماً لديهم ومع هذا لم يشكروا ولم يؤمنوا .

ويمكن أن يقال : ما السر فى مجئ قوله : " أولم يروا " فى الروم، ولم يرد " أولم يعلموا " كما فى الزمر ؟

وقد أورد هذا وأجاب عنه الإسكافى فى درة التنزيل فقال : "والجواب أن يقال : قوله تعالى فى سورة الروم : " أولم يروا " جاء عقيب قوله : " وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " والمعنى إذا أنعمنا عليهم نعمة ترى عليهم وتملأ مسارحهم ومراحهم وتعمر أفنيتهم وآنيتهم ملكهم الفرح واستولى عليهم البطر ، وإن أصابتهم عقوبة على ما قدموا من معصية ونالتهم شديدة من جدب وقحط يصفر لهما الإناء ويفرغ منهما الفناء حتى لا

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٢٣ ، وانظر مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٧٥ .
(٢) روح المعانى ٢١ / ٦٦ ، وحاشية الشهاب ٧ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ، وانظر تفسير أبى السعود ٧ / ٦١ .

ترى لهم ثاغبة ولا راغبة لم يعتبروا ولم يقلعوا عما أتوا مما جرَّ عليهم تلك الشديدة ، وفعلوا فعل من ييأس من أن يأتيه الله بعد ذلك بنعمة إن تدارك سيئة بتوبة ، فكان الأليق بهذا المكان " أولم يروا " أموال من بسط له الرزق ، فيعلموا أنه يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء ، وكلتا الحالتين مرئيتان عندهم مشاهدتان لديهم ، فإن من بسط له الرزق رُئي ماله ، ولم يخف على المشاهد حاله ، ومن انقلب أمره وانقطع خبره وأدركت العين منه خلاف ما كان قبل ، فلما جاءت هذه الآية بعد ذكر النعمة إذا وهبت ، وحال الإنسان فيها إذا سلبت ، والنعمة مرئية لاقى بهذا المكان " أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " [1] .

ويمكن أن يقال أيضا : ما السر فى مجئ التوكيد بـ " أنَّ " واسمية الجملة ، وتقديم المسند إليه على المسند الدال على القصر ؟

والجواب عن ذلك يقال : إن هذه المؤكدات لدفع أى إنكار من نفوسهم فيما يتصل بالسعة والكثرة والضيق فى قضية الرزق ؛ لأنهم لشركهم بالله تعالى لا يرجعون وجود الرزق وكثرته إلى الله على الحقيقة إلا فى وقت الشدة عندما ينزل بهم الضر ، وإنما يسندون ذلك إلى الأسباب على الحقيقة ، أى : يسندونها إلى الجد الاجتهاد والذكاء .....

وكذا جاءت هذه المؤكدات لدفع أى إنكسار من نفوس أمثالهم فى كل زمان ومكان ، والمخاطبون بهذا أرباب فصاحة وبيان يدركون أسرار التعبير فى الكلام .

ويمكن أن يقال أيضا : لماذا جاء المسند مضارعاً فى قوله " يبسط ... ويقدر " ؟ ولماذا جاء المسند إليه علماً " الله " ؟

ولعل الجواب عن الأول أن يقال : إن أحوال الناس ليست ثابتة فى السعة والضيق ؛ فقد يتمتع إنسان ما وقتاً طويلاً أو قصيراً ثم يتغير حاله ويتبدل وقتاً آخر ، وقد ينسحب هذا على مجتمع ما ، وترى الإنسان

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى / ٢٦٦ .

يعيش مهموماً حزيناً ، ثم يتغير حاله إلى الفرح والسرور ، وقد يكون الإنسان صحيحاً معافاً من كل مرض ، فيتبدل حاله إلى الضعف والوهن .

والجواب عن الثانى كما قال البقاعى : " ولما كان فى البسط والقبض جمع بين جلال وجمال لفت الكلام بذكر الاسم الجامع فقال : "إنَّ الله " بجلاله وعظمته " يبسط الرزق " أى : يكثره " لمن يشاء " أى : من عباده منهم ومن غيرهم " ويقدر " أى : يضيق ، وأن هذا شأنه دائماً مع الشخص الواحد فى أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ومع الأشخاص ولو فى الوقت الواحد ، فلوا اعتبروا حال قبضه - سبحانه - لم يبطروا ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا ، بل كان حالهم الصبر فى البلاء والشكر فى الرخاء والإقلاع عن السيئة التى نزل بسببها القضاء"[1] .

ولما كان المقام هنا بيان أحوال المشركين لم يذكر القرآن " من عباده " كما جاء فى آية سبأ . ولا يخفى الطباق بين البسط والقدر .

والبسط والقدر تابع لمشيئة الله تعالى وحكمته ولذا قال : " لمن يشاء " و" على من يشاء " .

والبسط والقدر من الأمور الدالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه المالك الذى يتصرف فى ملكه على حسب ما يكون به صلاح أحوال العباد ، وقد عرفنا من حال المشركين أنهم لا يؤمنون بذلك ، وأن الذى يتعظ بوجود هذا التفاوت بين الناس فى الرزق إنما هم المؤمنون ، ولذا جاء التذييل مبدوءاً بـ " إنَّ " لتوكيد هذه الحقيقة ، واسم الإشارة يعود إلى حالتى البسط والقدر للدالة على التعظيم والتفخيم .

والمقصود بالآيات الدلالات الواضحات على وحدانية الله تعالى ، والدالة على تمام العلم وكمال القدرة [2] .

---

(١) نظم الدرر ١٥ / ٩٦ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٥ / ٩٧ .

ويمكن أن يقال : لم خص المؤمن دون غيره ؟

وفى الجواب عن ذلك قيل : " خص المؤمن بالذكر ؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا واستدراجاً وتقتيره رفعة وإعظاماً " [1] .

وقد قال القرآن : " يؤمنون " بالمضارع ولم يقل : " آمنوا " ؛ لأن إيمانهم يتجدد كلما شاهدوا آية دالة على قدرة الله وحكمته فى خلقه ، فالإيمان يزيد وينقص ، أما " آمنوا " فيدل على حصول الإيمان وعدم تجدده بالزيادة والله أعلم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٢٥ .

آيتا سبأ

يقول الله تبارك وتعالى :

" قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعملون " [١] ويقول تعالى : **" قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين"** [٢] .

والسياق قبل الآية الأولى مختلف عن السياق قبل الآية الثانية ، فهو فى الأولى إعلان كفار مكة عدم إيمانهم بالله وبرسوله وبكتابه ، وشأنهم فى عنادهم وإصرارهم على الكفر شأن الأمم السابقة التى كذبت بأنبياء الله ورسله ، يقول تعالى : " وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه " [٣] ويقول تعالى : " وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون " [٤] .

فقد " قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه وافق ما فقال أهل الكتاب فقال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع"[٥].

والمترفون كما قيل : هم " أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل " [٦] .

ثم ادعوا كذباً وبهتاناً أن ما هم فيه من نعيم وترف مثل كثرة الأموال والأولاد دالة على أن الله تعالى راضٍ عنهم ، ولن يضيرهم

---

(١) سبأ : ٣٦ .
(٢) سبأ : ٣٩ .
(٣) سبأ : ٣١ .
(٤) سبأ : ٣٤ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٠٢ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٠٥ .

العذاب الذى يتوعدهم به الرسول ﷺ يقول تعالى : " وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " .

وقد أوصلهم إلى هذه الحالة الفساد فى القياس ؛ حيث قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا ؛ فالمكرم فى الدنيا بكثرة الأموال والأولاد مكرم فى الآخرة فلا يعذب إن كان ما يتوعدهم به الرسول ﷺ صدق وحق ، يقول المخشرى : " وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا : " وما نحن بمعذبين " أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أموالهم فى الدنيا " [1] وكثرة الأموال والأولاد وبخاصة عند هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى حروب جعلتهم يتكبرون على غيرهم ، ولذا عابوا على الرسول ﷺ فى أن كان من بين فقرائهم يقول تعالى : " وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً " [2] وكما ذكر أن قياس حال الآخرة على حال الدنيا فاسد ، أمر الرسول ﷺ بالرد عليهم بما يدفع حججهم الباطلة وادعاءاتهم الكاذبة مبيناً أن كثرة الأموال والأولاد لا تدل على رضا الله تعالى عن الموسع عليه ولا على غضبه على المضيق عليه ، يقول تعالى : " قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [3] .

وقد بدأت الآية بقوله تعالى : " قل " وهذا لا يكون إلا فى الرد على سؤال سائل أو ادعاء كاذب أو إنكار منكر أو تصحيحاً لمعتقد فاسد قال الزمخشرى : " وقد أبطل الله حسبانهم بأن الرزق فضل من الله

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٩١ - ٢٩٢ .
(٢) الفرقان : ٧ – ٨ .
(٣) سبأ : ٣٦ .

يقسمه كما يشاء ، على حسب ما يراه من المصالح ، فربما وسع على العاص وضيقه على المطيع ، وربما عكس ، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب " (١) .

إذن فالمقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو الرد على الكفار فى اعتقادهم الفاسد ودحض هذا الاعتقاد ، يقول الألوسى : " قل " رداً لما زعموه من أن ذلك دليل الكرامة والرضا "إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء" أى : يبسط له " ويقدر " على من يشاء أن يقدر عليه ، فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع ، وربما يعكس الأمر ، وربما يوسع عليهما معاً ، وقد يضيق عليه أخرى ، يفعل كلاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة ، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضا ، لاختص به المطيع ، وكذا لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط ، لاختص به العاصى وليس فليس " (٢) .

ومثل هؤلاء يعتقدون أن ما هم فيه من أموال كثيرة مرده إلى العمل والسعى ، وينكرون أن يكون ذلك من الله ، ولذا جاء الرد عليهم مؤكداً بأكثر من مؤكد ، وهو " إنَّ " واسمية الجملة ، وتقديم المسند إليه وهو " ربى " على المسند " يبسط " الدال على القصر المفيد لقوة التأكيد على هذا الأمر ، لأن جملة القصر بمنزلة جملتين إحداهما مثبتة والثانية منفية ، فأثبت أن البسط والقدر لله وحده ، ونفى عن غيره مما يعتقده الكفار أو يعتقده غيرهم لإزالة كل إنكار يدور بأذهانهم ، يقول البقاعى : " فقال مؤكداً تكذيباً لمن يظن أن سعيه يفيد فى الرزق شيئاً لولا السعى ما كان " قل " يا أكرم الخلق على الله مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يوسع فى الدنيا على من لا يرضى فعله " إنَّ ربى " أى المحسن إلىَّ بالإنعام والسعادة الباقية " (٣) .

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٩٢ وأنظر تفسير ابى السعود ٧ / ١٣٥ .
(٢) روح المعانى ٢٢ / ٢١٦ وانظر التفسير القرآنى ٦ / ٨٣٠ – ٨٣١ .
(٣) نظم الدرر ١٥ / ٥١٤ .

فالإضافة فى قوله تعالى : " ربى " للدلالة على تعظيم تشريف أمر المضاف إليه وهو الرسول ﷺ ، ولم يرد المسند إليه المقدم هنا لفظ الجلالة " الله " كما ورد فى المواضع السابقة ؛ لأن المقام هنا هو الرد بـ " قل " فناسب مجئ " ربى " وفيه تذكير للكفار بأن الله هو الذى أوجدهم من العدم وتكفل بهم صغاراً وأغدق عليهم كباراً فمالهم لا يؤمنون به تعالى ؟

ولعل السر فى مجئ المسند المضارع " يبسط .... ويقدر " هو بيان الرد على الكفار بأن البسط والقدر من الله تعالى : وأن البسط والقدر ليس ثابتاً فيمكن أن يضيق عليهم ويوسع على غيرهم ، وفى هذا تهديد لهم .

والبسط والقدر المسند إلى الله عز وجل قد وقع على الرزق ، والسر فى التصريح به هو خشية توهم أن البسط والقدر يقع على شئ آخر غير الرزق ؛ فمفعول يقدر ، ومتعلقه ، وصلة مَنْ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والرزق إذا أطلق انصرف إلى المال ، وإنما الرزق يشمل كل ما يعود بالنفع على الإنسان من جاه وسلطان وأولاد ..... وفيما ذكره ابن عاشور نظر فى ذهابه إلى أن البسط استعارة للكثرة ، وكذا القدر استعارة للقلة حيث قال : " وبسط الرزق تيسيره وتكثيره استعير له البسط وهو نشر الثوب ونحوه ، لأن المبسوط تكثر مساحة انتشاره ، وقدر الرزق عسر التحصيل عليه وقلة حاصله استعير له القدر أى : التقدير ، وهو التحديد لأن الشئ القليل يسهل عده وحسابه ..." [1] فقد سبق أن وضحنا أن البسط كناية عن الكثرة والقدر كناية عن القلة ، وليس من قبيل الاستعارة .

والكثير من الناس لا يدرك الحكمة من البسط والقدر ، وإنما يدرك ذلك ممن بلغ درجة عالية من التقوى والصلاح ، ولذا جاء القرآن عقيب الآية بقوله : " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " أى : أن الكثير من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢١٤ .

الناس " يزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة ، ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون بطريق الاستدراج ، والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات " (١) فقد صرح القرآن فى سورة الفجر بأن الأمرين ابتلاء كما سيأتى .

ومفعول " يعلمون " محذوف ، و " قد دل عليه الكلام أى : لا يعملون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر باعتبار عموم من يشاء من كونه صالحاً أو طالحاً ومن انتفاء علمهم بذلك أنهم توهموا بسط الرزق علامة على القرب عند الله وضده علامة على ضد ذلك " (٢) .

ويمكن أن يقال : إن هذه الآية قريبة الشبه من آية الرعد ؛ حيث قال تعالى فى الرعد : " الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " وهنا " قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " فلماذا قال : " قل إنَّ ربى " هنا ، وهناك " الله يبسط " ؟ ولعل الجواب عن ذلك أن يقال : إن آية الرعد كما عرفنا قد جاءت للرد على ما يمكن أن يدور بأذهان المؤمنين والكافرين ، مالنا لا يوسع علينا كما وسع على الكافرين ، ومالنا يوسع علينا ولا يوسع على المؤمنين ؟ فأينا على صواب ؟

أما آية سبأ فجاءت للرد على ادعاء كاذب صدر من الكفار فناسب : هذا أن يأتى فى الرد بقوله : " قل " والكاذب منكر فجاء قوله : " إنَّ ربى يبسط الرزق " لدفع هذا الإنكار .

وأما السياق قبل الآية الثانية فهو رد صريح آخر على الكفار فى دعواهم بأن كثرة الأموال والأولاد تدل على رضا الله عنهم ، فنفى القرآن ذلك وذكر أن الذى يقرب العبد من ربه هو الإيمان والعمل الصالح ، يقول تعالى : " وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون " (٣) .

---

(١) تفسير أبى السعود ٧ / ١٣٥ ، وانظر روح المعانى ٢٢ / ٢١٦ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢١٤ بتصرف .
(٣) سبأ : ٣٧ .

يقول الرازى : " ثم بين فساد استدلالهم بما قاله تعالى : يعنى قولكم : نحن أكثر أموالاً ؛ فنحن أحسن عند الله حالاً ليس استدلالاً صحيحاً ؛ فإن المال لا يقرب إلى الله ، ولا اعتبار بالتعزز ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان ، والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه ؟ " (١)

وقد قال الله تعالى : " بالتى " ولم يقل باللتين وذكر الأموال والأولاد وهما نوعان مختلفان ؛ لأنه ذكر من كل نوع منهما جمعاً يصلح فيه التى"(٢).

وقوله تعالى : " من آمن وعمل صالحاً " " استثناء من مفعول تقربكم ، أى : الأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح " (٣) .

وقوله تعالى : " وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى" قيل : إنه " كلام مستأنف من جهته عز وعلا ، خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق ، أى : وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة " (٤) . ثم يهددهم الله تعالى ويتوعدهم بالعذاب الأخروى إذا أصروا على كفرهم بالله تعالى ، وهو تهديد لهم ولغيرهم ممن يسلك مسلكهم إلى يوم الدين يقول تعالى : " والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون " (٥) .

أى : والذين يسعون فى إبطال أدلتنا وحججنا وكتابنا معاندين يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم أولئك فى جهنم محضرون ، تحضرهم الزبانية فيها (٦) .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣ / ٦ .
(٢) نظم الدرر ٢٢ / ١٠٠ .
(٣) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٧ / ٥٥٣ .
(٤) تفسير ابى السعود ٧ / ١٣٦ .
(٥) سبأ : ٩٧ – ٣٨ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٠٧ .

ويعتبر هذا الرد توكيداً للرد السابق الذى جاء فى قوله تعالى : " قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ... " وقد تبين فى الرد السابق ، أن البسط للبعض والتضييق على الآخر ، لا يدل على الرضا والغضب ، وهنا نفى أن تكون الأموال والأولاد سبباً للقرب ، وإنما الذى يقرب الإنسان إلى الله هو الإيمان والعمل الصالح ، ولذا توجه تعالى إلى المؤمنين بالخطاب فى قوله : " قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين " (١) .

فهذه الآية ليست للرد على الكافرين ، إنما هى خطاب للمؤمنين بدلالة الإضافة فى قوله تعالى : " من عباده " فالعباد المضافون إلى الضمير الذى هو الهاء العائد إلى الله يراد بهم المؤمنون تشريفاً وتعظيماً لشأن المؤمنين (٢) يقول أبو حيان : " فليس مساق " قل إنَّ ربى يبسط الرزق ..." مساق ما قيل للكفار ، بل مساق الوعظ والتزهيد فى الدنيا والحض على النفقة فى طاعة الله " (٣) وما ذكره أبو حيان ذكره الألوسى إلا أنه أضاف قوله : " وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فإنه للرد على الكفرة " (٤) .

فالمقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو ترغيب المؤمنين فى الإنفاق حيث وعدهم بالإخلاف ، يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب : و" كان المقام مقام دعوة إلى البذل والإنفاق من هذا المال ؛ لأنه من فضل الله ... وإذا كان الله سبحانه هو الذى يعطى فلا خوف من الإنفاق ؛ لأنه إنفاق فى سبيل الله وهو بمنزلة القرض لله ، ولن يضيع ما اقترضه الله بل يعود إلى صاحبه مضاعفاً " (٥) .

---

(١) سبأ : ٣٩ .
(٢) مفاتيح الغيب ١٣ / ٧ .
(٣) البحر المحيط ٧ / ٢٨٦ .
(٤) روح المعانى ٢٢ / ٢١٩ .
(٥) التفسير القرآنى ٦ / ٨٣٢ .

وأما القرطبى فقد اعتبر أن الخطاب للكفار ؛ حيث ذكر أن الآية هنا مكررة للتوكيد ، فقال : " قوله تعالى : " قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له " كرر تأكيداً " [1] وما ذكره القرطبى يكون مقبولاً على اعتبار أن الكفار مطالبون بفروع الشريعة ، ويكون الخطاب عاماً للمؤمنين والكافرين ، وأما إذا لم يكن هذا الاعتبار مقبولاً فإن الخطاب للمؤمنين ، والمعلوم من حال المؤمنين فى ذلك الوقت أنهم كانوا فى ضيق من العيش ، وكانت نفوسهم تتطلع إلى المال والسعة ، فأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يقول لهم : لا تنظروا إلى ما فى أيدى الكفار واصبروا ، فإن الله تعالى يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، فيمكن أن يوسع عليكم كما وسع عليهم ، ويضيق عليهم كما ضيق عليكم، وقد كان ؛ حيث وسع الله على المسلمين فاستولوا على ممالك كسرى وقيصر ، وضيق على الكفار ، وبالتالى تغير أحوال الناس إلى قيام الساعة ، وهذا ما كشف عنه التعبير بالمسند المضارع فى قوله : " يبسط ... ويقدر " .

ولعل السر فى مجئ " إنَّ " التى للتوكيد ، واسمية الجملة المفيدة للتوكيد ، وتقديم المسند إليه على المسند الدال على القصر كما فى بقية الآيات ؛ لإزالة أى إنكار من النفوس فى أن البسط والقدر إنما هو من الله تعالى وحده ، وليس لأحد من خلقه ممن يعتقد أن فى أيديهم أرزاق العباد ... مدخل فى هذا وكذا دفع الإنكار بأن العمل أو السعى وحده هو الذى عليه المعول فى كثرة الرزق أو قلته .

والناظر فى هذه الآية والسابقة يلحظ اختلافها عنها ؛ حيث جاء هنا " من عباده " و " له " ؛ لأن هذه الآية – كما قيل : " خطاب للمؤمنين، والسابق للرد على الكافرين ، يقول الرازى : " قال : " لمن يشاء من عباده " والعبادة المضافة يراد بها المؤمن " [2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٢٩٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٣ / ٧ ، وانظر البحر المحيط ٧ / ٢٨٦ .

وأشار الألوسى إلى سر التعبير بقوله تعالى : " له " فقال : " وأيضاً ما سبق عام ، وما هنا خاص فى البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين كما يشعر به قوله تعالى هنا : " له " وعدم قوله هناك ، والضمير وإنْ كان فى موضع " مَنْ " المبهم إلا أن سبق النظير خالٍ عن ذلك ، وذكر هذا بعد مشتملاً عليه كالقرينة على إرادة ما ذكر " [1] وقد ذكر الخطيب الإسكافى السر فى التعبير بقوله : " من عباده " و " له" وهو يتحدث عن سر التعبير بقوله : " له " فى سورة العنكبوت، والتى قاس عليها آية سبأ هذه فقال : " فالهاء فى قوله : " له " ترجع إلى " ما شاء من عباده " و " من يشاء " مفعول " يبسط " فكان " ويقدر له " هو من يبسط فى وقتين مختلفين فاقتضى هذا المكان الذى جاء فيه بالمعنى - الذى هو غير الأول - من جميع البسط والقبض لواحد فى حالين ، وكذلك قوله : " قل إنَّ ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه " [2] . ثم دعا القرآن الكريم المبسوط له والمقدور عليه إلى الإنفاق والنفوس البشرية تجاه هذه الدعوة مختلفة ، فمن الناس من ينفق قربة لله تعالى ، ومنهم الذى ينفق طمعاً فى الثواب ومنهم الذى ينفق خوفاً من العقاب ، ومنهم من لا ينفق إلا بعد العلم بالحصول على العوض والمقابل ، ولذا قال : " وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه " .

وقد جاء ذلك فى سياق الشرط ؛ لأن " ما شرطية فى موضع نصب بـ " أنفقتم " وقوله : " فهو يخلفه " جواب الشرط ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذى فى موضع رفع بالابتداء ، والجملة بعده خبره ، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، " من شئ " تبيين على الاحتمالين ، ومعنى يخلفه يعطى بدله وما يقوم مقامه عوضاً عنه ، وذلك إما فى الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التى هى كنز لا

---

(١) روح المعانى ٢٢ / ٢١٩ .
(٢) درة التنزيل / ٢٥٦ – ٢٥٧ .

يفنى كما قيل ، وإما فى الآخرة بالثواب الذى كل خلف دونه ، وخصه بعضهم بالآخرة " [1] .

والإنفاق المطلوب إنما يكون على قدر حال الإنسان ؛ لأن الله خلق عباده متفاوتين فى الرزق ؛ ولذا قال : " من شئ " عظيماً كان أو حقيراً ، كثيراً كان أو قليلاً ، كل على قدر استطاعته ، وقد حذف الجار والمجرور المتعلق بالفعل " يخلف " والتقدير : فهو يخلفه عليكم [2] .

والفعل " يخلف " يدل على أن الله منجز وعده بالخلف عاجلاً أو آجلاً .

ويمكن أن يقال : إن الله تبارك وتعالى هو الرازق وحده لجميع الناس والدواب ، وكل ما يكون فى حاجة إلى بقاء حياته فَلِمَ قال : " وهو خير الرازقين " و كلمة " خير " تدل على أن هناك فاضلاً مفضولاً فيما يتصل بالرزق ؟

والجواب عن ذلك : أنَّ الكثير من الناس يسند الرزق إلى نفسه ؛ كأن يرى أنه يرزق أولاده ، ويرى السلطان أنه يرزق جنده ، ويرى السَّيد أنه يرزق عبيده .... هؤلاء وغيرهم يجرى الله تعالى الرزق على أيديهم؛ لأنه تعالى هو خالق الأسباب ، وخالق الأسباب هو خالق الرزق فى الحقيقة [3] ؛ ولذا فإن هناك فرقاً بين الخالق وبين بعض المخلوقين الذين يسندون الرزق إلى أنفسهم ، هذا الفرق هو أنَّ الله تعالى لا يؤخر رزقه الذى قدره لأى عبدٍ أو أى مخلوق عن وقت الحاجة ، والناس يؤخرون إذا أرادوا إذلال بعضهم البعض ، والله تعالى لا ينقص عن قدر الحاجة والناس ينقصون ويبخلون ، والله تعالى لا ينكر بالحساب والناس ينكرون، والله لا يكدر بطلب الثواب والناس يكدرون ، فهذا هو المقصود بـ " خيرية الرزق " [4] .

---

(١) روح المعانى ٢٢ / ٢١٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٢٩٥ بتصرف .
(٣) الكشاف للزمخشرى ٣ / ٢٩٢ بتصرف .
(٤) مفاتيح الغيب ١٣ / ٧ .

آية الزمـــر

يقول الله تبارك وتعالى :

" أولم يعلموا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " (١) .

والسياق قبل هذه الآية يكاد يتفق مع السياق الذى قبل آية الروم ، وهو الكشف عن حالتين من أحوال الكفار وهما حالة نزول الضر وحالة إغداق النعم ، يقول تعالى :

" فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم عندى بل هى فتنة ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين " (٢) .

وقد بدأت الآية الأولى بـ " إذا " الدالة على أن المس أمر يقع على الكثير من الناس وأنه أمر محقق ، ونكر الضر للدلالة على أنه إذا مسهم ضر يسير يحاولون كشفه ، وعند العجز يرجعون بفطرتهم إلى خالقهم ، وأما فى حالة إغداق النعم ينسون خالقهم ، ويسندون وجود النعمة إلى أنفسهم بدلاً من شكر الله عليها ، وليس هذا شأنهم ، إنما هو شأن الكفار فى كل زمان ، وقد أراد القرآن تنبيههم إلى خطأ ما هم عليه فتوعدهم بالعذاب عند إصرارهم على كفرهم ، ولم تغن عنهم أموالهم .

وقد أضاف السياق هنا شيئاً غير موجود فى آية الروم وهو أن هؤلاء الكفار قد أضافوا وجود النعمة إلى أنفسهم ، وهذا ما جاء على لسان قارون " قال إنما أوتيته على علم عندى " .

---

(١) الزمر : ٥٢ .
(٢) الزمر : ٤٩ ــ ٥١ .

وذكر أيضا أن الحالتين فتنة لهم " يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة ؛ لأن حاله يوصف بأنه فتنة ؛ من حيث يختبر عنده حال من أوتى النعمة كما يقال : " فتنت الذهب بالنار " إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته " [١] وقد عبر القرآن عن العقاب بالسيئة على جهة المشاكلة التقديرية لما وقعت فى مقابلته [٢] وأراد القرآن توجيه هؤلاء إلى النظر فيما حولهم والتأمل للوصول إلى الحقيقة التى طمستها كثرة الأموال ، والغرور وهى أن كثرة الرزق الذى يفخرون به على غيرهم ممن ضيق عليهم فى الرزق ليست إلا من الله الذى خلقهم ورزقهم ، يقول تعالى : " أولم يعلموا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنَّ فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " [٣] .

والاستفهام فى قوله تعالى : " أولم يعلموا " استفهام إنكارى توبيخى [٤] ، حيث أنكر القرآن عليهم ، ووبخهم على عدم إدراك هذه الحقيقة التى لا تغيب عن الأفهام ، وهى التنوع والاختلاف فى حظوظ الناس ، والعلم كما قيل : " إدراك الشئ بحقيقته ، وذلك ضربان ، أحدهما : إدراك ذات الشئ ، والثانى : الحكم على الشئ بوجود شئ موجود له أو نفى شئ هو منفى عنه " [٥] .

ولعل السر فى مجئ التوكيد بـ " إنَّ " واسمية الجملة ، وتقديم المسند إليه على المسند الدال على القصر هو إزالة الإنكار من نفوس الكفار حول التوسعة والضيق حيث قد اعتقدوا أن النعمة من أنفسهم ، إذاً هم منكرون أن تكون من الله ، وإذا زال الانكار لم يبق أمام القلوب إلا الإقرار بوحدانية الله تعالى ، وهذا ما يراد منهم .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣ / ٤٥٢ .
(٢) حاشية الشهاب ٨ / ٢١١ .
(٣) الزمر : ٥٢ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٨ .
(٥) المفردات للراغب (علم) .

ثم يأتى التذييل هنا مطابقا لآية الروم ، وبدأ بالتوكيد بـ " إنَّ " لدفع أى شك بأن الذى يتعظ بالآيات هو المؤمن ، وأما الكافر فلا يتعظ ولا يعتبر " إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " .

وأما اسم الإشارة " ذلك " فى قوله : " إنَّ فى ذلك " إنما يشار به إلى الأحوال المتغيرة فى البسط والقبض والصحة والمرض والعز والذل .

واتضح فى آية الروم السر فى تخصيص المؤمنين بالاعتبار ، ويقول فيه القرطبى : " خص المؤمن بالذكر ؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكراً واستدراجاً وتقتيره رفعه وإعظاماً " (١) .

وقد اختلفت آية الزمر عن آية الروم فى أن آية الروم قد جاء فيها قوله تعالى : " أولم يروا " وهنا " أولم يعلموا " .

ولعل السر فى مجيئه هو أن آية الزمر كما قيل : جاء قبلها " قال إنما أوتيته على علم عندى بل هى فتنة " .

والضر سوء الحال من مرض فى النفس ونقص فى المال ، وهو الذى شكاه أيوب – عليه السلام – " مسنى الضر " (٢) وقوله : " ثم إذا خولناه نعمة منا " أى : إذا أعطيناه بعد العلة صحة ، وبعد القلة ثروة ادعى أنه أوتى ما أوتى بعلمه ويقول : إنى افتقرت قبل لأنى قصرت ، والآن عملت كيف التأتى للاكتساب واستعادة الغنى بعد الافتقار ، وتلك النعمة من الله ، وهى فتنة له ، أى تشديد فى التكليف عليه ؛ لأنه مطالب بمعرفتها التى ذهبت عنها وعن حكمها وغفل عن شكر واهبها ..... ثم قال : " أو لم يعلموا " أن الله يوسع على الفقير حتى يستغنى ويفتح له أبواب الرزق حتى يثرى ، وأنه يضيق على من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٦٧ .
(٢) الأنبياء : ٨٣ .

يشاء أن يضيق عليه ..... فقابل ما ادعوه من العلم لما قال كا برهم : " إنما أوتيته على علم" فرد عليهم بأن قال : هلا علمتم ما هو أوضح من أحوالكم فتعلموا أن الخصب والجدب ليسا بأيديكم وأن المرض والشفاء ليس إليكم وإنما ذلك مما تعلمونه من بسط الله الرزق إذا أرسل السماء عليكم مدراراً وما تتأملون منه إذا ضن السحاب بقطره وابتلى أحدكم بفقره ، فكان " أولم يعلموا " أولى بهذا المكان من قوله : " أولم يروا " فى سورة الروم [1] وقيل أيضاً : إن السر فى مجئ " أولم يعلموا " هنا أنه متصل بقوله : " أوتيته علم " وبعده " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " فحسن أولم يعلموا"[2] .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٦٦ ـ ٢٦٨ .

(٢) أسرار التكرار للكرمانى / ١٦٩ .

آيتا الشورى

يقول الله تبارك وتعالى :

" **له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شئ عليم** " [1] ، ويقول تعالى : " **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير**" [2] .

ومن خلال النظر فى السياق قبل الآيتين يتضح أن سياق كل واحدة منهما مختلف عن الأخرى .

فالسياق قبل الآية الأولى يُعرِّض القرآن فيه بعجز الأصنام التى تُتخذ آلهة مع الله عن تولى أمور مَنْ يعبدها ، وعجز عن إحياء الموتى وخلق السماوات والأرض وخلق الأزواج الأنعام ، يقول تعالى : " أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير " [3] ثم يقول تعالى : " فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير " [4] .

وفى تكرار ضمير الفصل فى قوله : " فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير " دلالة على تفرده تعالى وحده بهذه الأشياء وأنه لا يشاركه فيها أحد .

ثم يمضى السياق فى بيان أن الله تعالى مالك الكون بما فيه ، وهو يتصرف فى ملكه حسب ما تقتضيه مشيئته ، يقول تعالى : " له مقاليد السماوات الأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شئ عليم " [5] .

---

(١) الشورى : ١٢ .
(٢) الشورى : ٢٧ .
(٣) الشورى : ٩ .
(٤) الشورى : ١١ .
(٥) الشورى : ١٢ .

وبهذا يتضح أن المقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو الدلالة على قدرة الله وحده على الخلق والإحياء والإماتة وبسط الرزق وقدره ، يقول الرازى : " اعلم أن المراد من الآية أنه فاطر السماوات والأرض ، والأصنام ليست كذلك ..... والمقصود من الآية بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية؟ "[1] يقول تعالى :"أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون"[2].

وقد قيل أيضاً : إن هذه الآية إنما جاءت لدفع إيهام يمكن أن يدور بأذهان البعض من أن الله قد ثبت له ما فى الوجود ، وأنه الذى فطره ، ولكن لا يملك التصرف فيه ، وذلك بأن تكون مفاتيح خزائنه بيد غيره ، وفى هذا يقول البقاعى : " ولما قرر أمر الوحى بما ثبت من الإعجاز وأراهم الآيات فى الآفاق بأن له ما فى الوجود وأنه الذى فطره ، وكان ربما كان للإنسان شئ ولم يكن كامل التصرف فيه بأن تكون مفاتيح خزائنه مع غيره من شريك أو غيره ، وكان ربما اخترع الإنسان بناء وكان لغيره ، أخبر إكمالاً لتنزيهه " له مقاليد السماوات والأرض .... " وشرحاً له أنه تعالى ليس كمثله شئ وليس لغيره فى هذا أيضاً ، بل كما أنَّ له ما فى الخافقين ، وهو مخترعهما ، فله مفاتيح خزائنهما فقال : أى وحده " له مقاليد السماوات والأرض " أى : خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الأمطار والإنبات وغيرهما " [3] يقول تعالى : " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو " [4].

وقد أراد القرآن توكيد أن له تعالى خزائن السماوات والأرض ، وأن له مفاتيح الخزائن فقدم المسند على المسند إليه فى قوله : " له مقاليد السماوات الأرض " فقد دل هذا التقديم على القصر حيث أثبت أن له تعالى وحده مقاليد السماوات والأرض ونفاها عن غيره قصر موصوف

---

(١) مفاتيح الغيب ١٤ / ١٦ .
(٢) النحل : ١٧ .
(٣) نظم الدرر للباقى ١٧ / ٢٦١ ـ ٢٦٢ .
(٤) الأنعام : ٥٩ .

على صفة أى قصر المقاليد على كونها مملوكة لله لا تتعدى ذلك إلى غيره قصرا حقيقيا تحقيقاً .

وقد رجعت فى الوقوف على المراد بالمقاليد إلى سورة الزمر حيث ذكرت المقاليد فيها قبل الشورى عدا ما ذكرته عن البقاعى . ذكر الألوسى أن المراد بالمقاليد المفاتيح ؛ حيث قال : " أى مفاتيحها .... وهو جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل جمع مقليد وقيل جمع مقلاد من التقليد بمعنى الالزام ..... وهو على جميع الأقوال عربى ، والأشهر الأظهر كونه معرباً فهو جمع إقليد معرب كليد وهو جمع شاذ ، لأن جمع إفعيل على مفاعيل مخالف للقياس " (١) .

وقد جعله الزمخشرى كناية عن القدرة والحفظ فقال : " أى هو مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية ؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها " (٢) .

وقد انتفع بكلام الزمخشرى البيضاوى فقال : " لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره وهو كناية عن قدرته وحفظه لها ، وفيها مزيد دلالة على الاختصاص ؛ لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها " (٣) وقد وضح الشهاب كلام البيضاوى فقال : " قوله : لا يملك أمرها ..... " كلامه لا يخلوا من النظر ، لأن الظاهر أن ملكها والتصرف ليس هو اختصاصه أو ملكه لمفاتيحها بل لازمه فيكون معنى كنائياً أيضاً ، والقدرة والحفظ لها مغاير له أيضاً ، ولما فسره به ، وإن كان بينهما تلازم ، ولم يبين دلالته على الأول ، وكونها مجازاً أو حقيقة وكناية " (٤) وقد وافق الشهاب الزمخشرى فى عدها من باب الكناية وعقب فقال : " والزمخشرى اقتصر على تفسير واحد وجعله كناية ولا غبار عليه لجواز أن يكون لها مفاتيح ، أو خزائن فى

---

(١) روح المعانى ٢٤ / ٢٠ .
(٢) الكشاف ٣ / ٤٠٦ .
(٣) حاشية الشهاب على البيضاوى ٧ / ٢٢٠ .
(٤) حاشية الشهاب على البيضاوى ٧ / ٢٢٠ .

قبضة قدرته ، فإن لم يكن ذلك فهو بناء على عدم اشتراط جواز إرادة المعنى الحقيقى أو هو مجاز متفرع على الكناية وهم يسمونه كناية ، فإما أن يكون الأول كناية اشتهرت فنزلت منزلة المدلول الحقيقى ، وكنى به عن معنى آخر فيكون كناية على كناية " [١] .

وقد جاء كلام الشهاب واضحاً عند الألوسى فقال : " قيل مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفاً فيه بعلاقة اللزوم ، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ ، وجوز كون المعنى الأول كنائياً ، لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقى ، فكنى به عن المعنى الآخر فيكون كناية على كناية"[٢].

وماذا يقصد بالكناية على كناية ؟ يمكن أن يكون المقصود بها الكناية بوسائط بمعنى أن يكون هناك تعبير وقع كناية ، فيكون التعبير الكنائى كناية عن شئ آخر ، والله اعلم .

وقد ذكر فى الآية السابقة أنه تعالى : " فاطر السماوات والأرض " ثم ذكر هنا أن " له مقاليد السماوات والأرض " وكان يمكن أن يقول : " له مقاليدهما " بالضمير ، لأنه يمكن أن يتوهم أن المقاليد يراد بها شئ آخر غيرهما .

وقد فصل القرآن بين جملة " له مقاليد السماوات والأرض " وبين جملة " يبسط الرزق لمن يشاء " لسر بلاغى هو كمال الاتصال ؛ لأن الجملة الثانية " مبينة لمضمون جملة "له مقاليد السماوات والأرض" [٣] وقيل أيضا : " ولما كان قد حصر فيه دل عليه بقوله " يبسط الرزق " [٤] .

---

(١) السابق .

(٢) روح المعانى ٢٤ / ٢٠ ، وينظر حاشية الدسوقى على مختر السعد " ضمن شروح التلخيص ص ٢٦٣ ط السعادة ط ٢٠ ١٣٤٣ هـ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥ / ٤٩ .

(٤) نظم الدرر ١٧ / ٢٦٢ .

فجملة " له مقاليد السماوات والأرض " تدل على أنه تعالى مالك لهما ولكل ما فيهما وحده ، وهو يتصرف فيهما على حسب مشيئته وحكمته ، و " يبسط الرزق " بيان لهذا التصرف ، فيوسع لمن شاء أن يوسع له ويقد على من شاء أن يقدر عليه ، ويعز هذا ويذل ذاك ويكرم ويهين ويخفض ويرفع ، ولذا جاء التعبير بالمسند مضارعاً .

والجار المجرور فى قوله : " لمن يشاء " متعلق بالفعل " يبسط وكذا المقدر يتعلق بـ (يقدر) أى : أن البسط والقدر يكون لمن شاء له الله ذلك دون تقيد بكفر أو إيمان أو صلاح أو فساد .

وقد عرفنا السر فى ذكر المفعول به وهو " الرزق " وكذا وقفنا على الطباق بين " يبسط .... ويقدر " .

والرزق يراد به أيضاً خيرات السماوات والأرض ، فخيرات السماوات المطر وخيرات الأرض ما يتسبب عن هذا المطر مما ينتفع به الإنسان أو الدواب .....

ثم يأتى قوله تعالى : " إنه بكل شئ عليم " تعليلاً لما سبق ، وتمهيداً لما بعده من قوله تعالى : " شرع لكم من الدين " [1] كأنه قيل : لِمَ فعل ذلك ؟ عالله بقوله مؤكداً ؛ لأن أعمال غالب الناس فى المعاصى عمل من يظن أنه سبحانه يخفى عمله ..... فلا فعل له إلا هو ، وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة ، فلو أنه وسع على العرب وقواهم ثم أباحهم ملك أهل فارس والروم لقيل بقوتهم ومكنتهم ، وله فى كل شئ دق أوجل من الحكم ما يعجز عن إدراك لطائفه أفاضل الأمم [2] .

ويمكن أن يكون التذييل هذا تعليلاً للبسط والقدر أى وسع على هذا وضيق على هذا ، لأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئ فى السماوات والأرض .

---

(١) تفسير أبى السعود ٨ / ٢٥ .

(٢) نظم الدرر ١٧ / ٢٦٣ .

وقد " أجمل القول فى التوسعة والتضييق لما أخبر أنه خلق لنا من أنفسنا أزواجاً أى من أجناسنا أشكالاً ذكوراً وإناثاً ، ومن الأنعام مثلها ، فإنه ينشئنا فى هذا الخلق ، فلا يزال الآخر مخلوقاً فى الأول فى ظهور الآباء وبطون الأمهات إلى الوقت المعلوم ، وهو يملك أرزاق هذا الجمع من السماء بالمطر والنبت ، فوادٍ خطاً ووادٍ مطراً على ما يشاء رب العالمين فتبارك الله أحسن الخالقين " (١) .

وأما السياق قبل الآية الثانية فهو ترغيب العصاة من المؤمنين فى العودة إلى ربهم بالتوبة الصادقة ، فإن تابوا قبل توبتهم وأجاب دعاءهم ، وأما الكفار الذين لم يرجعوا عن كفرهم حتى ماتوا عليه فقد أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً ، يقول تعالى : " وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد " (٢) .

وفى صلة الآية التى نحن بصددها بهذا السياق يقال : قدر ذكر الله تعالى فى السياق أنه يستجيب لدعاء المؤمنين ، وقد يكون المؤمن فى فقر وشدة ثم يدعو فلا يستجاب له ، فجاءت هذه الآية لتبين أن بسط الرزق لجميع الناس من شأنه أن يؤدى إلى بغى بعضهم على بعض ، وإفسادهم فى الأرض يقول تعالى : " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير " (٣) .

يقول الرازى : " اعلم أنه تعالى لما قال فى الآية الأولى : إنه يجيب دعاء المؤمنين ، ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله : " ويستجيب الذين آمنوا ؟ فأجاب تعالى عنه بقوله : " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض " (٤) .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل / ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٢) الشورى : ٢٥ ـ ٢٦ .
(٣) الشورى : ٢٧ .
(٤) مفاتيح الغيب ١٤ / ٣٨ ، وانظر التحرير والتنوير ٢٥ / ٩٢ .

فالمقام الذى جاءت فيه هذه الآية هو عدم المساواة بين الناس جميعاً فى أرزاقهم ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية وجود هذا التفاوت ، ولذا جاءت هذه الآية فى سياق الشرط بـ " لو " الدالة على امتناع الامتناع ، أى : امتناع الجواب الناشئ عن امتناع الشرط ، يقول صاحب المغنى فى حديثه عن لو : " إنها تفيد امتناع الشرط خاصة ولا دلالة لها على امتناع الجواب ولا على ثبوته ، ولكنه إن كان مساوياً للشرط فى العموم كما فى قولك : " لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً " لزم انتفاؤه ؛ لأنه يلزم من انتفاء السبب المساوى انتفاء مسببه .... وهذا قول المحققين "[1].

وفعل الشرط كما هو واضح من سياق الآية هو " بسط ..... " أى : بسط الرزق للناس جميعاً وهذا لم يكن ولن يكون ؛ لأنه تعالى قد أحاط علماً بأنه لو وسع على الناس جميعاً أرزاقهم لوقع منهم بغى وإفساد وبالتالى تتحول الأرض إلى حالة من القتل والدمار " وقيل : لو جعلناهم سواء فى المال لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع "[2]. وأخذتهم الأثرة والأنانية .

يمكن أن يقع من المقبوض عنهم ، فلِمَ شرط البغى بالسعة فى الرزق ؟

والجواب عن ذلك : أن البغى مع الفقر يكون أقل ومع البسط يكون أكثر ، وأغلب ، فلو كان البسط عاماً لكان البغى غالباً [3] ، وقد جاء البسط مسنداً إلى لفظ الجلالة " الله " فى قوله : " ولو بسط الله الرزق" ؛ لأنه تعالى قد أحاط علماً بالخلائق جميعاً ، وأحاط علماً بأخلاقهم وأوصافهم ، وما يصلحهم وما يفسدهم ، وله تعالى القدرة على إعطائهم والمنع عنهم ، فالمسند إليه هو الاسم الجامع لكل صفات الكمال[4].

---

(١) مغنى اللبيب ١ / ٢٥٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٧ .
(٣) انظر الكشاف ٣ / ٤٦٩ ، وروح المعانى ٢٥ / ٥٩ .
(٤) انظر نظم الدرر ١٧ / ٣٠٨ .

ولعل السر فى التعبير بقوله تعالى : " لعباده " هو الدلالة على وقوع البغى من الناس جميعاً عندما يبسط لهم فى الرزق ، وكراهة أن يظن خصوصية ذلك بالتائبين فهذا التعبير يشمل التائب منهم وغير التائب ، بأنه لو أعطاهم فوق حاجتهم لبغوا فى الأرض [١] .

وأما جواب الشرط فقد جاء مقروناً باللام فى قوله : " لبغوا " وقد قيل : إن هذه اللام لا تقع فى جواب " لو " إلا بعد قسم مقدر ، وليس الجواب للشرط بـ " لو " بل للقسم [٢] وحينئذ يكون القسم المقدر وجوابه جواباً لـ " لو " ولأجل هذا اقتضت حكمة الله تعالى وجود تفاوت بين الناس جميعاً فى الرزق ، ولا يخفى على أحد ما جرى وما يجرى من هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بسعة فى الرزق من الأمم أو الشعوب أو القبائل من محاولة فرض السيطرة على بقية الشعوب الفقيرة بالقوة وإخضاعهم وإذلالهم ، يقول الرازى : " ولو سوى فى الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح " [٣] وأما الشيخ عبدالكريم الخطيب فقد ذكر كلاماً كثيراً فى هذا الشأن أحاول إيجازه ، فقد أراد أن يقول : إن الإنسان لا يقف عند الحاجة إلى الطعام والشراب ، بل إنَّ مطالبه كثيرة كالعواطف والنزاعات وأشدها ضراوة جوع الأثرة والتعالى وحب التملك والسلطان، فهو لا يرضى أن يكون فى مستوى الناس إنما يريد أن يكون فوقهم جميعاً وهو فى سبيل ذلك يفعل كل شئ من السلب والقتل . والمجتمع الذى ينفرد بالغنى والثراء والسلطان يتحول إلى عاصفة مدمرة تجتاح المجتمعات الفقيرة ؛ فكان من حكمته تعالى أن وزع الأرزاق بين الناس جميعا بقدر [٤] .

---

(١) السابق بتصرف .
(٢) أنظر رصف المبانى فى حروف المعانى / ٢٤٢ .
(٣) مفاتيح الغيب ٤ / ٤٠ .
(٤) انظر التفسير القرآنى مجلد ٧ / ٥٣ ـ ٥٥ بتصرف .

وقد لا يصدر البغى من الأغنياء أو ذوى السلطان فقط إنما أراد القرآن من وراء هذا القسم توكيد وقوع البغى من الناس عند البسط لهم فى الرزق .

والبغى كما قيل : " طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى تجاوزه أو لم يتجاوزه ، فتارة يعتبر فى القدر الذى هو الكمية وتارة يعتبر فى الوصف الذى هو الكيفية ، يقال : " بغيت الشئ " ، إذا طلبت أكثر ما يجب .... والبغى على ضربين ، أحدهما : محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع .

والثانى : مذموم وهو تجاوز الحق إلى الباطل ، أو تجاوزه إلى الشبه .... وبغى الجرح تجاوز الحد فى فساده ، وبغت المرأة بغاء إذا فجرت ، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها .... وبغى تكبر وذلك لتجاوزه منزلته إلى ما ليس له ، ويستعمل ذلك فى كل أمر " (١) .

وقيل : " لبغوا من البغى وهو الظلم ، أى لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة ، وكفى بحال قارون عبرة !!! أو من البغى وهو البذخ والكبر أى : لتكبروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد " (٢) .

والبغى حين يقع سيكون فى كل مكان فى الأرض ، ولذا قال : " فى الأرض " ، ووقوع البغى من شأنه أن يؤدى كما ذكر قريباً إلى تعطل الحياة على الأرض ، فلن يكون هناك تفاوت بين الناس كى يحتاج الرئيس إلى المرؤس والعظيم إلى الحقير ، ولذا قال تعالى : " ولكن ينزل بقدر ما يشاء أى : يبسط لهذا ويقدر عن هذا كى يظل التفاوت قائماً لتستمر الحياة .

وقد عبر القرآن عن منح الله تعالى الرزق لعباده بالإنزال فى قوله : " ولكن ينزل " والإنزال " فى الأصل : انحطاط من علو يقال :

---

(١) المفردات للراغب (بغى) ، وانظر روح المعانى ٢٥ / ٥٩ .
(٢) الكشاف ٣ / ٤٦٩ .

نزل عن دابته ونزل فى مكان كذا حط رحله فيه " [١] . فالرزق يحمل على المجاز المرسل الذى علاقته السببية ؛ لأن الذى ينزل هو المطر ، والمطر سبب ؛ لأن الماء سبب الحياة على الأرض ، وعبر القرآن عنه بالرزق فى قوله : " وينزل لكم من السماء رزقاً " [٢] .

ثم يأتى قوله تعالى " إنه بعباده خبير بصير " تعليلاً لعدم البسط للجميع وللتنزيل بقدر ، أى أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا من إحاطة علمه بعباده يعلم ما يصلحهم ما يصلح حياتهم " يعنى أنه عالم بأحوال الناس ، وبطبائعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم"[٣] . وهذا مثل آية الإسراء ويمكن أن يكون السر فى هذا التعليل هو أن الكثير من الناس يمكن أن يقول فى نفسه : لو بسط لى الرزق لعملت الخير وتجنبت الشر وأصلحت غاية الإصلاح ، فجاء قوله تعالى : " إنه كان بعباده خبيراً بصيراً لدفع هذا "[٤] وكان مقتضى الظاهر أن يقول " إنه كان بهم " ولكن خالف هذا الظاهر وقال " بعباده " لئلا يظن أن الأمر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم [٥] ، أو ؛ لأنه تعالى خبير بأحوال عباده المكرمين بصير بما يصلحهم وما يرد بهم"[٦] .

---

(١) المفردات نزل .
(٢) غافر : ١٣ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٤ / ٤٠ .
(٤) نظم الدرر ١٧ / ٣٠٩ .
(٥) السابق .
(٦) روح المعانى ٢٥ / ٦٠ .

آية الطـــلاق

يقول الله تبارك وتعالى :

" لينفق ذو سعة من سعته ومَنْ قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا " (١)

والسياق قبل هذه الآية هو دعوة الرجال الذين طلقوا نساءهم طلقة بائنة أو رجعية إسكانهن والإنفاق عليهن ما دمن فى العدة ، والإنفاق عليهن مدة الحمل إلى أن يضعن حملهن ، يقول تعالى : " أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإنْ كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى "(٢) .

فقوله " أسكنوهن " " استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ؟ فقيل : أسكنوهن مسكنا حيث سكنتم ، أى بعض مكان سكناكم " (٣) .

إذن الصلة بين قوله تعالى : " أسكنوهن " وبين ما قبله هى شبه كمال الاتصال ، لأن قوله : " أسكنونهن " جاءت جواباً عن سؤال مقدر فى الجملة السابقة .

ويقول الزمخشرى : " يعنى هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية " فآتوهن أجورهن " حكمهن فى ذلك حكم الأظآر " (٤) .

أى : أن الإنفاق المطلوب من الزوج هنا أن ينفق على مطلقته إذا كانت حاملاً حتى تضع حملها ، ثم هو ملزم بالإنفاق على المولود وأمه

---

(١) الطلاق : ٧ .
(٢) الطلاق : ٦ .
(٣) تفسير ابى السعود ٨ / ٢٦٣ .
(٤) الكشاف ٤ / ١٢٢ .

إذا قبلت الإرضاع له ؛ لأنها بوضع الحمل صارت خالية ، فهى مخيرة بين الإرضاع له وعدمه ، فإذا قبلت فقد قامت بعمل ليس من حقه عليها لذا يجب عليه إعطاؤها أجراً على هذا .

ثم يأتى قوله تعالى : " لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا " [١] .

تذييلاً لما سبق من أحكام الإنفاق على المعتدات والمرضعات بما يعم ذلك [٢] .

وفى معنى الآية يقول الطبرى : " لينفق الذى بانت منه امرأته إذا كان ذا سعة من المال وغنى من سعته ماله وغناه على امرأته البائنة فى أجر رضاع ولده منها وعلى ولده الصغير ..... ومن ضيق عليه رزقه فلم يوسع عليه فلينفق مما أعطاه الله على قدر حاله " [٣] .

وقد بدأت هذه الآية بالأمر بالإنفاق فى قوله تعالى : " لينفق " وقد جاء الأمر قبلها فى قوله : " وأنفقوا " وفيها " فلينفق " ويمكن أن يقال : إن هذا من قبيل التكرار ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن الأمر بالإنفاق فى قوله تعالى : " وأنفقوا عليهن " مرتبط بالإنفاق على المرأة إلى أن تضع حملها ، وأما الأمر فى قوله : " لينفق ذو سعة " فالأمر بالإنفاق فيه مرتبط بحال الزوج الموسر ، والأمر فى قوله " فلينفق مما آتاه الله " مرتبط بحال الزوج إذا كان مقدوراً عليه ، إذن هذه الأوامر مرتبطة بأشياء مختلفة وبالتالى لا تعد من قبيل التكرار . وأما المقام هنا فهو دعوة الرجل الذى طلق زوجته إلى الإنفاق عليها على قدر حاله من السعة والضيق .

---

(١) الطلاق : ٧ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٣٠ .
(٣) جامع البيان ٢٨ / ١٤٨ .

وصيغة الأمر هنا لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع "لينفق" وهى تدل على تجدد الطلب ما دامت المرأة فى العدة ، أو ما دامت ترضع له ؛ لأن الخلافات التى أدت إلى وقوع الطلاق يمكن أن تؤثر على الرجل فينفق وقتاً ثم يتراجع عنه بعد ذلك قبل انتهاء الرضاعة ، أو قبل انتهاء العدة ، فيأتى التعبير القرآنى داعياً إلى مداومة الإنفاق وتجدده، وهذا بخلاف ما لو قال : " وأنفقوا " ؛ أو لأن مدة الحمل يمكن أن تطول فيجب عليه الإنفاق كذلك ، والمقصود بالإنفاق بذل المال ونحوه فى وجه من وجوه الخير [1] وهو هنا " كفاية مؤونة الحياة من طعام ولباس وغير ذلك مما يحتاج إليه " [2] .

وقد عبر القرآن عن حال الزوج بالأسلوب الصريح فى قوله : " ذو سعة من سعته " فلا يصح أن يكون الزوج ذا ثراء ويبخل على ولده أو على من ترضعه ، لأن الإنفاق يجب أن يكون على قدر حال الرجل ، فقد يكون موسراً ولكن شدة غضبه من مطلقته يجعله بخيلا على ابنه ، ولذا دعا الإسلام إلى النظر إلى حال الزوج فى هذا الأمر .

وبعد أن بين حال الموسر ، انتقل إلى بيان حال المضيق عليه ، وجاء الأمر بالإنفاق جواباً للشرط فـ " مَنْ " اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ ، والفاء رابطة لجواب الشرط واللام فى قوله " فلينفق " لام الأمر الداخلة على المضارع للدلالة على تجدد الأمر بالإنفاق ، وقد بنى الفعل " قُدر " للمفعول تعليماً للأدب معه سبحانه وتعالى " [3] .

والقدْر هنا كناية عن القلة كما قال البقاعى : " ولما كان الإعطاء من غير تقدير ملزوماً للسعة كان التقدير كناية عن الضيق فقال : " ومن قُدر " أى : ضيق وسكنت عليه حركته ورقدت عنه معيشته "عليه رزقه" بأن جعله الله الذى لا يقدر على التضييق والتوسيع غيره بقدر

---

(١) المعجم الوجيز ٦٢٨ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٣٠ .
(٣) نظم الدرر ٢٠ / ١٦٢ .

ضرورياته فقط من غير وسع لشئ غيرها لأمر من الأمور التى يظهر الله بها عجز العباد رحمة لهم ليهذب به نفوسهم" [١] .

و " مِنْ " فى قوله تعالى : " مما " للتبعيض ، والتبعيض يشير إلى أن ما أوجبه سبحانه لا يستغرق ما وهبه [٢] .

ولما كان هو الذى قد قدر الرزق على عباده فإنه تعالى لم يكلفهم من الإنفاق ما لا يطيقون فقال : " لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها " فالفعل " يكلف " من " كلفه تكليفاً أى أمره بما يشق عليه " [٣] ولذلك قيل : هو رفع الحرج ودفع للمشقة التى قد يحمل عليها الأب فى سبيل الإبقاء على ولده " [٤] .

فالقرآن بهذا التعبير يطيب قلب المعسر ويرغبه فى بذل مجهود وقد أكد ذلك بالوعد فقال : " سيجعل الله بعد عسر يسرا " .

وقد نكر القرآن نفساً للدلالة على العموم أى : أىُّ نفس ضيق الله عليها لا يكلفها إلا بمقدار ما أعطى لها " إن كان ذا سعة فمن سعته وإن كان مقدوراً عليه رزقه فمما رزقه الله على قدر طاقته لا يكلف الفقير نفقة الغنى " [٥] .

ودعوة الإنسان إلى الإنفاق على قدر ما أعطى تخفيف من الله تعالى عليه ، ولكن يمكن أن يدور بأذهان المقدور عليه وساوس وهواجس منها لماذا يضيق الله عليه ؟ فأراد الله تعالى أن يدخل الطمأنينة على قلبه ؛ فذكر أنه سوف يوسع على المقدور عليه فقال : " سيجعل الله بعد عسر يسرا " فأسند الفعل " يجعل " إلى لفظ الجلالة " الله " مما يدل على أن هذا " وعد من الله سبحانه للمضيق عليه فى الرزق بأن هذا

---

(١) نظم الدرر ٢٠ / ١٦٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ١٢٣ بتصرف .
(٣) لسان العرب (كلف) .
(٤) التفسير القرآنى ٧ / ١٠١٤ .
(٥) جامع البيان ٢٨ / ١٤٩ .

الضيق إلى سعة وأن هذا العسر إلى يسر ، فليتحمل الأب هذا الضيق وألا يضيق به ، ثم ألا يحمله الضيق على أن يلتوى فى سلوكه إزاء الإنفاق على ولده الرضيع أو يتحمل من هذا الواجب المفروض عليه"[١].

ولما كان هذا بمنزلة الوعد كما قيل دخلت السين على المضارع فإن السين تختص بالمضارع وتخلصه للاستقبال وتنزل منه بمنزلة الجزء ..... وهى تنقل المضارع من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال ..... وزعم الزمخشرى أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ، .... ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه وقد أومأ إلى ذلك فى سورة البقرة فقال : " فسيكفيكهم الله " ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين[٢] وقيل أيضا : " ولما كان التذكير بالإعدام ربما أوجع قال تعالى جابراً له وتطييباً لقلبه نادباً إلى الإيمان بالغيب : " سيجعل الله " أى : الملك الذى له الكمال كله فلا خلف لوعده " [٣].

---

(١) التفسير القرآنى ٧ / ١٠١٤ .
(٢) مغنى اللبيب ١ / ١٣٨ – ١٣٩ .
(٣) نظم الدرر ٢٠ / ١٦٤ .

آية الفجـــر

يقول الله تبارك وتعالى :

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن " (١) .

والسياق قبل هاتين الآيتين هو بيان القرآن عن كمال قدرة الله تبارك وتعالى على إهلاك المكذبين لرسول الله ﷺ من أهل مكة كما أهلك من كان قبلهم من الأمم السابقة التى كذبت بأنبياء الله ورسله ، ومن هؤلاء عاد وثمود وفرعون ، وأين كفار مكة من هؤلاء فى القوة والجبروت ؟ يقول تعالى : " ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إنَّ ربك لبالمرصاد " (٢) .

فقوله تعالى : " إنَّ ربك لبالمرصاد " تعليل لما قبله ، وإيذان بأن كفار قومه ﷺ سيصيبهم العذاب مثل ما أصاب أضرابهم المذكورين ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام (٣) .

والتهديد والوعيد من الأساليب التى لها تأثير قوى على نفوس المخاطبين فيمكن أن يغيروا عقائدهم الباطلة وأفكارهم الضالة ويسمعوا صوت ، ويصغوا لنداء الضمير ، فالذى لا يتأثر بالوعد يمكن أن يؤثر فيه الوعيد .

---

(١) الفجر : ١٥ – ١٦ .
(٢) الفجر ٦ – ١٤ .
(٣) روح المعانى ٣٠ / ٢٢٥ بتصرف .

ثم يبين القرآن طبع الإنسان حيث يقول تعالى : " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن " [1] .

فالقرآن يكشف عن طبع الإنسان الذى لا يقصد به الكافر فقط ، وإنما يندرج تحت هذا الكثير من المسلمين الذين لا ينظرون إلا لدنياهم واتباع شهواتهم وغرائزهم ، فالكافر لا يقر ولا يدين إلا بشئ واحد هو دنياه التى يفرح ويسر بما يكون له فيها من حظ ونصيب فى الأموال والأولاد والجاه والسلطان والصحة ..... ويحزن ويغم إذا أصيب بالفقر الجوع والقحط ، ومثل الكافر الكثير من المسلمين الذين يضعون الدنيا نصب أعينهم .

وأما المسلم التقى - وهذا قليل - كما قال الله تعالى : " وقليل من عبادى الشكور " [2] فإنه يتقبل الغنى كما يتقبل الفقر .

وقد بدأت هذه الآية بالفاء فى قوله " فأما الإنسان " فهل هى للعطف أو لمعنى آخر غيره ؟ قيل : هى للعطف أو للتفريع ودخلت على "أما" التى بمعنى " مهما " الشرطية ، ولا تعمل عملها ، ويكون فيها معنى التفصيل زائداً فتقول : أما زيد فمنطلق ..... والمعنى مهما يكن من شئ فزيد منطلق [3] وبهذا فقوله تعالى : " فأما الإنسان .... " متصل بقوله تعالى : " إنَّ ربك لبالمرصاد " كأنه قيل : إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعى للعاقبة وهو مرصد بالعقوبة للعاصى ، فأمَّا الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها [4] .

---

(١) الفجر : ١٥ – ١٦ .
(٢) سبأ : ١٣ .
(٣) رصف المبانى / ٩٧ .
(٤) انظر الكشاف ٤ / ٢١٥ ، ومفاتيح الغيب ٣٠ / ١٧٠ وتفسير أبى السعود ٩ / ١٥٦ .

فالله يريد للإنسان الخير ولكن الإنسان يهرب من الخير إلى الشر، لأن مفهوم الخير والشر عند الله تعالى مختلف عنه عند الإنسان، فالخير الذى أراده الله تعالى للإنسان هو الإيمان والعمل الصالح وكل ما يوصل النعيم الأخروى الذى لا ينقطع ولا يزول، وأما الشر فهو الكفر والفسوق والعصيان، وأما الخير عند الإنسان فمنحصر فى النعيم الدنيوى فإن وجد الراحة فيها بكثرة الأموال .... قال : ربى أكرمن، وأما الشر عند الإنسان فمنحصر فى ضيق العيش، ولذا يقول : ربى أهانن[1].

إذن المقام هنا هو بيان القرآن بالإكرام، وحالة القدر التى عبر عنها بالإهانة.

وقد عبر القرآن عن الابتلاء بالإكرام والإنعام، وعبر عنه أيضاً بالقدر؛ لأن الفاء فى قوله " فأكرمه .... فقدر عليه رزقه " تفسيرية؛ لأن الإكرام والتنعيم عين المراد بالابتلاء [2]، وكذا القدر تفسير للابتلاء، والابتلاء : الاختبار، يقول الراغب : " وبلوته : أختبرته كأنى أخلقته من كثرة اختبارى له ..... (و) اختبار الله للعباد تارة يكون بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر؛ والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين. وبهذا النظر قال عمر : بلينا بالصبر فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر " [3].

فقد سمى القرآن كلا الأمرين من بسط الرزق وقدره ابتلاء؛ لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٢٩ بتصرف.
(٢) روح المعانى ٣٠ / ٢٢٥.
(٣) المفردات للراغب (بلى)، وانظر القاموس المحيط ٤ / ١٦٧.

يكفر؟ ، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ؟ فالحكمة فيهما واحدة [1] .

ولم يقل القرآن : " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فبسط له رزقه " وإنما قال : " فأكرمه ونعمه " حيث عبر عن البسط بالإكرام ، لأن الكرم من أسباب البسط ، والبسط يدل على الكثرة والسعة ، أما الإكرام فيدل على الكثرة والسعة المصحوبة بإحسان وتفضل وإنعام وعفو وصفح .

وقد عرفنا أن المراد بالإنسان الكافر ، والكثير من المسلمين ، فكيف يتفق هذا مع قوله : " ربه " و " ربى " ؟

وفى الجواب عن ذلك يقال : إن الأمر بالنسبة لكثير من المسلمين فالأمر واضح ، وأما بالنسبة للكافر فإنه يقر بربوبية الله تعالى حينما ينزل به ضر ولا يجد من يكشفه فيرجع بفطرته إلى ربه راجياً كشف ضره ، وأن المشرك حينما يقول : " ربى " إنما يقصد الشركاء الذين يتخذهم آلهة مع الله تعالى .

وقد اقتصرت الآية على تقتير الرزق فى مقابلة النعمة دون بقية العلل والآفات ؛ لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج وقوة الأبدان فلا يهلكوا إلا بقتل أو هدم [2] .

وقد سبق بيان أن القدْر قد جاء كناية عن القلة ، لأنه لغة أن يأتى على المقدار ، ولا يكون على المقدار إلا إذا كان قليلاً .

وقد جاء فى القسم الأول بالفاء فى قوله : " إذا ما ابتلاه فاكرمه " وفى القسم الثانى بالواو فى قوله : "وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه"؛ لأن رحمة الله سابقة على غضبه ، وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقبله الثانى على ما قال :

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٥١ بتصرف ، وانظر مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٧٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٢٥ .

" وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " [1] ولما ذكر القرآن فى الآية الأولى "فأكرمه" وجاء فى الجواب " فيقول ربى أكرمن " كان عليه أن يقول : "وأما إذا ما ابتلاه " فأهانه " فيقول ربى أهانن " لكنه ترك هذا فقال : "فقدر عليه رزقه " والجواب عن ذلك يقال : إنه فى قوله " أكرمن " صادق وهو فى قوله : " أهانن " غير صادق ، فقد ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة ، وهذا جهل واعتقاد فاسد [2] .

والإنسان فى قوله : " أكرمن " صادق إلا أن تكثير الدنيا بسعة الرزق لا تدل على إكرامه ، وكذا تقليل المال ليس دليلاً على إهانته فربما يوسع الله على الإنسان استدراجاً وربما عصى فضيق عليه إكراماً، لأن ذلك يكفر عنه ، فالتوسعة ليست دالة على الإكرام ، والتضييق ليس دالاً على الإكرام ، إنما قد تكون الإهانة عند عدم الشكر على النعم، ولذا قال : " كلا " فـ " كلا " تدل على ذم القول فى الآيتين ؛ لأنها ليست مختصة بالإهانة فقط ؛ لأنه اعتقد حصول الاستحقاق فى ذلك الإكرام ؛ ولأن نعم الله تعالى عليه كانت حاصلة قبل وجدان المال ، وهى نعمة سلامة البدن والعقل والدين ، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال؟ علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله ، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد ؛ ولأن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكراً للبعث [3] .

وقد قدم القرآن " ربى " على الفعل " أكرمن " و " أهانن " دون أن يقول : " أكرمنى ربى " أو " أهاننى ربى " فتقديم الفاعل هنا دل على تقوية الحكم أى يقول ذلك جازماً غير متردد [4] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠ / ١٧٢ ، سورة إبراهيم آية ٣٤ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣٠ / ١٧٢ .
(٣) السابق بتصرف .
(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٣٠ .

والملاحظ أن الآية الثانية لم يرد فيها ذكر الإنسان كما فى الأولى؛ لأنه اكتفى بذكره فى الأولى ، والفاء لازم بعده ؛ لأن المعنى مهما يكن من شئ فالإنسان بهذه الصفة ، لكن الفاء أخرت ليكون على لفظ الشرط والجزاء [1] .

وقد اشار المحقق لـ " أسرار التكرار السر فى الشرط والجزاء فقال : " وسر الشرط والجزاء فهم الإنسان حكمة الله فيه وأنه خاطئ فى نسبة الإهانة إلى الله بل أهان الإنسان نفسه بعدم إكرام اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين عند الفقد " [2] .

---

(١) أسرار التكرار للكرمانى / ٢١٨ بتصرف .

(٢) هامش السابق .

الخاتمـــة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين فإن أفضل الأعمال بعد التوحيد الاشتغال بتدبر القرآن ومحاولة الوقوف على أسرار إعجازه ، ولذا كانت هذه المحاولة فى آيات بسط الرزق وقدره والتى كان من أهم النتائج لها :

* أن الآيات التى بينها تشابه فى القرآن يمكن أن تعد من قبيل التكرار ولكن بعد تدقيق النظر كما ذكر يقال : إنها ليست متشابهة أو متطابقة نظراً لإختلاف السياق والمقام وأن كل آية قد وقعت موقعها من النظم الكريم فى السورة فكل آية جاءت لغرض معين كما هو واضح من خلال تناول كل آية على حدة .

* أن البسط والقدر جاء مسنداً مضارعاً فى آية الرعد وآية الإسراء وآية القصص وآية العنكبوت وآية الروم وآية سبأ وآية الزمر وآية الشورى ، وما يقال عن السر فى التعبير بالمسند مضارعاً فى آية واحدة يمكن أن يقال فى المواضع التى جاءت فيها لكن أقول : إن المسند المضارع فى كل آية يؤدى غرضاً يتفق مع سياق هذه الآية ففيه تحذير للمبسوط له وتطمين للمقدور عليه .

* أن البسط والقدر لا يرتبط بإيمان أو كفر فقد يكون المبسوط له كافراً، وقد يكون مؤمناً ، وكذا المقدور عليه ؛ لأن كلاً منهما يعد من قبيل الابتلاء ، أو الفتنة للإنسان .

* أن كل نعمة من الله للعبد تستوجب الشكر عليها ، وأن القبض أو القدر يستوجب أيضاً الصبر على ذلك ، ولكن حال الكافر ، والكثير من المسلمين يخالف هذا ؛ لأنه إذا أصابته سراء نسى ربه أو تناسى ؛ لأن الغالب فى طباع البشر كلما بسط له ابتعد عن الله وأما إذا أصابته

ضراء تذكر خالقه وتضرع إليه بكشف الضر عنه ، فإذا كشف عنه الضر عاد إلى ما كان عليه من قبل .

* مجئ المسند فى آية الشورى فى سياق الشرط – " لو " وفى آية الطلاق فى سياق الشرط بـ " مَنْ " وفى آية الفجر فى سياق الشرط بـ "إذا" وهذا التنوع تبعاً لتنوع سياق كل آية .

* أن هناك فرقا بين الرزق والكسب .

* اختلاف التوكيد بالقصر عن التوكيد بـ " إنّ " أو غيرها .

* أن الراجح هو رأى أهل السنة فى أن الرزق لا يكون إلا من الحلال ، واتضحت لنا وجهة نظرهم .

* الاكتفاء بآيات البسط والقدر ؛ لأن آيات الرزق فى القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة وتكفى لإعداد رسالة ماجستير ، فالرزق منه ما هو دنيوى ، وهو ما ذكرناه فى الآيات التى وقفنا عليها ، وغيرها كثير ، ومنه ما هو أخروى .

* أن الرزق من الأشياء التى تشغل الناس جميعاً وبعد فإن كنت قد وفقت فى إعداد هذا البحث على الصورة المرجوة من ورائه . فالفضل له تعالى وحده ثم لكل من أسدى إلىَّ نصحاً ، وإن لم أكن فحسبى أنى قد توجهت بالهمة إليه ثم القراءة ، والإعداد .

والله من وراء القصد وهو ولينا ونعم النصير .

الباحث

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

- أساس البلاغة للزمخشرى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط الثالثة ١٩٨٥م .
- الإيضاح للخطيب القزوينى شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبدالمنعم خفاجى ط دار الجيل بيروت لبنان .
- أسرار التكرار للكرمانى دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ط الثالثة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- البحر المحيط لأبى حيان الناشر مكتبة ومطابع النصر – الرياض المملكة العربية السعودية .
- البيجورى على الجوهرة المسماة تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم البيجورى طبع على نفقة الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م .
- تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ط دار الفكر بيروت لبنان .
- تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٨٤م .
- التفسير القرآنى للقرآن للشيخ عبدالكريم الخطيب ط دار الفكر العربى بمصر .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .
- جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى المتوفى ٢١٠ هـ ط دار الفكر العربى بيروت – لبنان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م .

- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى للشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . ط دار الكتب العلمية ١٤١٧ – ١٩٩٧م .
- درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للخطيب الإسكافى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ط المكتبة التوفيقية بمصر .
- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير تأليف عبدالهادى العدل بتعليق وتحقيق عبدالسلام سرحان دار الطباعة المحمدية الثالثة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨م .
- رصف المبانى فى شرح حروف المعانى لـ أحمد بن عبدالنور المالقى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ بتحقيق أحمد محمد الخراط ط مجمع اللغة بدمشق ١٣٩٤ هـ .
- روح المعانى للألوسى قرأه وصححه محمد حسين ط دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م .
- سراج الطالبين شرح الشيخ إحسان محمد دحلان على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للإمام حجة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى ط مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦م .
- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر .
- محاسن التأويل للقاسمى وقف على طبعه وتصحيحه وخرج آياته وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقى ط دار الفكر بيروت – لبنان الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط دار الجيل الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

- مغنى اللبيب لابن هشام حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محى الدين عبدالحميد نشر مكتبة ومطبعة محمد على صبيح بمصر مطبعة المدنى .
- مفاتيح الغيب للرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ الناشر دار الغد العربى مصر الأولى ١٤١٢ – ١٩٩٢م .
- مفتاح العلوم للسكاكى ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
- المفردات للراغب الاصبهانى أعده للنشر واشرف على الطبع د. محمد أحمد خلف الله الناشر الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .
- ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل بتوجيه المتشابه اللفظ من آى التنزيل لأبى جعفر أحمد إبراهيم بن الزبير الغرناطى تحقيق محمود كامل أحمد ط النهضة العربية بيروت لبنان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- مقدمة ابن خلدون وهى مقدمة الكتاب المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر للعلاقة عبدالرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ – ١٤٨١م ط دائرة المعارف النظامية ط الهند الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .